obeikandl.com

وحـــــدي

هذه الترجمة الكاملة لرواية
Yaksin

وحـــــــدي

Juhani Aho

يوهاني أهو

ترجمة/ دعاء السيد
مراجعة/ محمد السيد
الإشراف/ خالد عباس
الغلاف/ هانيبال - هيبو
الإخراج الداخلى/ فاطمة عنان

سلسلة من كل بلد كتاب - رواية من فلندا
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٣

رقم الإيداع:- ١٨٧١ /٢٠١٣
ISBN:978- 977 -6299 -74 -6

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أواقتباس هذا العمل أوأي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أوإليكترونية أوميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أوأقراص مقروءة أوأي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

This book is translated with a financial support of FILI
«Finish literature exchange» Sphinx Agency © 2013

obeikandl.com

يوهاني أهو

وحـــــدي

ترجمة / دعاء السيد

وكالة سفنكس

obeikandl.com

obeikandl.com

وحدي

انتهينا من تناول العشاء ثم جلسنا في غرفة الصالون، وكانت عقارب الساعة تتجه إلى الثانية عشرة، لم نتحدث كثيراً طوال الليل وكل ما قيل كانت أشياء غير هامة فحديثنا قل شيئا فشيئاً حتى كاد أن يتوقف تماما، اخترقت أصوات عربة الحنطور ذلك الصمت لدقائق.. تلك العربة التي مرت بالشارع على مسافة من المنزل والتي لم نسمع منها سوي تلك النغمة الحزينة المتناغمة مع شعلة المصباح.

شاهدت «أنَّا» وهي تخفي تثاؤبها بيدها، أما الأخ الذي جلس ممداً باسطاً رجليه على الكرسي الهزاز، و لم يخف تثاؤبه مطلقا فنحن أصدقاء منذ زمن طويل.

لم أتمكن من الجلوس أكثر من ذلك رغم أنني وددت أن أظل ناظراً إلى هناك من مكاني هذا تحت ظل أحد المصابيح هناك حيث تجلس(أنَّا) على ضوء المصباح منكفئة على عملها ثم قامت بوضع أدوات الخياطة، وبدأ أنها تريد النهوض فبادرتها وأخذت قبعتي الموضوعة على البيانو وانحنيت لأقوم بتحية الأم.

فسألتني هي: ستذهب؟ ولكنها بسطت يدها لتصافحني.

قلت لها: «لقد حان الوقت «لم يكن لدي من الكبرياء ما يكفي لتغير نبرة صوتي المكلومة، وذلك رغم شعوري بضرورة فعل ذلك.

ردت قائلة: «والآن إلى اللقاء ورحلة سعيدة، ثم تمنَّت لى حظاً سعيدا وحياة هنيئة كما أنها طلبت مني أن أعود إلى الوطن حاملا العديد من الأفكار الجديدة».

فقلت لها: العديد من الأفكار الجديدة طبعا!.

حاولت في هذا الرد إعطاء صوتي نبرة ذات قسوة وإرادة إلى حد ما.

ثم قال الأخ لي: «إلى اللقاء أيها الصبي الكبير واكتب لنا عن كل شيء قدرالإمكان كما اتفقنا».

تلك هي الجملة التي تخلص بها الأخ من كسله الذي عذبني طوال الليلة.

جلست «أنَّا» بينهما فبدأتُ بسلامي على الأم، ثم انتقلت مباشرة إلى الأخ، أما هي فتركتها لكي تكون ضمة يدها هي الأخيرة قبل أن أرحل.

فقالت: «أديو....» رحلة سعيدة يا أديو.

ياإلهي..! كم قالتها بشكل جاف ورسمي وبارد أيضاً..! كم خَلت مصافحتها من الاهتمام والمشاعر!.

وحين اصطحبني الآخرون حتي غرفة الاستقبال، ظلت هي في غرفة الصالون وأغلقت البيانو ذلك البيانو الذي جلست أمامه وأخذت

تعزف في ساعة الغروب، وعند ما أتيت سمعت الموسيقي وأنَّا على السلم فظللت منصتاً لهما للحظات بنفسٍ مكتوم وقلب خافق من خلف الباب، ثم رأيتها وهي تأخذ المصباح من على المنضدة فتمنيت أن تأتي وحينها سأشعر أن السلم يتلألأ بالأضواء، ولكنها كانت ترتب أوراقها فقط ثم توقفت عن ذلك وذهبت إلى غرفة نومها وأغلقت الباب بقسوة كما بدا لي.

آخر ما رأيته منها ملامحها الجميلة ووجنتيها الناعمتين وخصلة مجعدة من شعرها تندسل على أذنها.

«لا».. هذا هو ما فكرت به أثناء نزولي على السلم فطالما أنت لا تريد.. فأنا أيضا لا أريد.

قرعت بوابة المنزل بقوة فتراخت مفصلاته وأصدرت البوابة أصواتا كموسيقى البوب حينما قرعتها، حيث صلصل زجاج النافذة ورد عليه الدهليز المظلم الطويل بصدي صوت عال.

أحمد الله أن الأمور اتضحت أخيراً، فقد ظللت أعذب نفسي بالآمال حتي آخر لحظة، ولكن من الآن لن أعذبها ثانية، «لقد كنت مثل تائه في الصحراء» يتعلق بسراب ثم يختفي ذلك السراب من أمامه فجأة، ولا يري أمامه سوي بحراً من رمال ويعلم أنه لن يتمكن من إنهاء عطشه.. لقد استسلمت كلياً للشعور باليأس.

ثم تحدثت مع نفسي: «كن سعيدا مهما حدث فلماذا يغلي صدرك، ولماذا يتألم قلبك؟»

وأثناء ذلك وجدت إحدى عربات الحنطور تتأرجع عند ناصية

الشارع في ضوء مصباح الغاز وسائقها يغلب عليه النوم.
أشعر وكأن تلك الأشجار كثيفة الأوراق في الشوراع الواسعة ترتفع فوقي كقوس مظلم.. وهناك عند المقبرة في الكنيسة القديمة يتسلل غلامٌ مع حبيبته.
ثم رأيت سيدة وحيدة مغطاة الرأس تستبق الخطو تجاهي، ثم مرَّت أمامي في تردد، كانت ذات عينين خاشعتين متضرعتين، كان بإمكانك أن تأخذها معك وحينها كانت ستحمل لك عرفاناً بالجميل، ربما كانت تنظر لك عندما وقفت هناك تحت ضوء المصابيح صامتة، لعلها تأتي غداً وتصحبك إلى الباخرة وتراك من بين كل الناس وترسل لك تحية قلبية وهي تلوح بمنديلها.. فلماذا تركتها تذهب؟
لن تتمكن(أنَّا) من المجيء فهى تتمني أن تأتي ولكنها لن تستطيع لا تحملى كل هذا في صدرك حبيبتي! فأنت لا تستطيعين.
لا تبكِ ياصغيرتي! ولا تجعلى الألم يقتلك!.
حاولي أن تعيشي سعيدة!.. سأعود خلال سنوات قليلة وسأحضر معي العديد والعديد من الأفكار الجديدة.
وفجأة دوى صوت عالٍ في السوق كله، وهو صوت إحدي عربات الحنطور التي جاءت من تركيانتن، وهي عربة تحمل طلاباً أنيقين وصلوا المدينة للتو.
ياإلهي إنهم شباب.. إنهم يغنون ويهللون من الفرح!. ما زالوا قادرين على الإستمتاع بالحياة وما زال العالم مفتوحاً أمامهم.

أما أنا فسيطير عقلي!، انتابني شعور بالغيرة من هؤلاء الشباب فهم على الأرجح لن يشعروا بها ولن يولوها اهتماماً، مثلما لا توليهم هى اهتماما والسبب في ذلك فقط هو أنهم سيظلون هنا.
جلبت أحدهم بجانبي ويبدو أنه خليُ البال بتلك الصبغة المماثلة على جانب رأسه.
لديه أكتاف عريضة وشعر أسود مجعد، أما أنا أسير بقبعة أسطوانية رسمية وكأنني رجل عجوز كما أنني بدينٌ وثقيل الحركة وقليل الحيلة أيضاً.
وأثناء قيامي بهذه المقارنة أجبر نفسي على ضحكة ساخرة ولكنها رائعة، ثم أسير سريعا عبر الساحة لأذهب إلى فندق كامبس ذلك الفندق الموجود على بوابته مصباح كهربي ينشر ضوءه الأزرق في المكان.
ياله من شعور مريح عندما تصعد إلى مسكنك، عندما تصل إلى الفندق الذي تأوي إليه عندما تصل إلى الدور الذي تسكن به!، وجدت الفاتورة في فتحة الباب فهى توضع كل يوم بنفس الطريقة وذلك«تجنباً للأخطاء» كم هم ودودة يدها..! ياالها من رائحة عطرة تسكن هذه الحجرة..! وياله من تنظيم رائع يختفي تحت هذه المصابيح الغير مضاءة، فالأشياء المتقابلة منظمة بنفس الشكل وكأنك تنظر في مرآة، وعلى قعر الطفاية وجدت نفسي أقرأ -تلقائياً-: «المخزن الشمالي للتجهيزات في مدينة هلسنكي وهو مخزن كبير من الأجهزة المنزلية للأسر والعائلات المضيفة.

لذلك يقول دائما«كم تفتقد غرف الفنادق للخصوصية!» ربما لأنها لا تحمل البصمة الشخصية للفرد، أو لأنها لا تحمل ذكريات من أحداث حياتنا، ولكنني قضيت نصف عمرى في الفنادق، وهذه الأشياء الصماء من الكراسي والأرائك والطاولات التي تشبه غيرها، فهى عندي كممتلكات قديمة موروثة وهناك أمام سريرى توجد حقيبتي المفتوحة على آخرها، لقد كنت أنا وحقيبتي أصدقاءاً جيدين وذلك عندما أعددتها منذ أسبوع استعداداً للرحلة، لقد أحضرت هذه الحقيبة لي ملابسي المكوية، ولكنها أحضرتها شديدة التأذى وذلك بسبب ما قمت به من مجهود أثناء تعبئتها. لم تستطع (أنَّا) التنفس وكأنها صعدت السلم العالي قفزاً، ولكي تستجمع أنفاسها جلست على الكرسي وتركت يديها في حجرها .

فقد أرادت أن تري كيف أقوم بتجهيز حقيبتى عندما أسافر إلى الخارج، وقالت لي«رباه! إنك حقا.. لا تعلم كيف تبدأ أيها الصبي الكبير.. ابتعد!»، دفعتني جانباً وأفرغت الحقيبة ثم بدأت في تعبئة كل شيء من جديد، جلست على ركبتيها في الأرض وشعرها الغير المصفوف يبدو رائعاً.

أما أنا فاقتصرت مهمتى على أن أناولها الأشياء، وقامت بوضع الملابس البيضاء في الحقيبة فوق بعضها البعض بشكل جميل، ثم أخذت تملأ الفراغات بالياقات والمناديل.

وقفت قليل الحيلة مفتون بمنظرها هذا !، وسألت نفسى«لو كانت لا تحبني لما فعلت ذلك سأسافر غداً والآن هي اللحظة المناسبة»فقلت

لها ما علق بلساني طوال فترة الصيف وهو أني أحبها.

ولم أستطع أن أرى وجهها لكنى رأيت قفاها الذي احمَّر لونه، ثم قامت بوضع بعض المناديل في الحقيبة ورمت الكومة كلها على الأرض، وبعدها سمعت خطواتها السريعة تصعد السلم تمرُّ سريعا في الدهليز لتصل إلى غرفتها وأغلقت الباب.

حدث ذلك دون أن يلاحظ أحد شيئاً فالأم مشغولة في المطبخ، ثم خرجت في الهواء الطلق وأخذت أتجول فوق الجبال والهضاب، وبعد أن عدت للمنزل عبر الطريق المحاذي لقضبان السكة الحديد، والذي كاد فيه القطار أن يفتك بجسدي، وجدت باب غرفتها مازال مغلقاً، ولكني هناك وجدت ورقة مكتوب عليها بخط يدها فوق ملابسي في حجرتي، كتبت فيها أنها تعتبرني صديق أو أخ كبير و كانت تقول أنها تعتبرني مثل عمها.

لم يكن هناك شيئ آخر يمكن أن الحديث عنه في هذه الورقة. أما الأم والأخ لم يقولا ليَ أي شيء. كما وقد طلبت مني ألا أفكر في ذلك لأنها«لا تريد».

لم تأت لتناول العشاء ولم أرها إلا في الصباح التالي وذلك قبل أن يتحرك القطار بمدة قصيرة، لقد اختفت الملابس الصيفية الخفيفة وارتدت فستاناً ثقيلاً، تحولت من فتاة مرحة وعابثة آخذها بين ذراعيَ واتنزه بها حتي أمس إلى سيدة وقورة.

ألا يوجد ذكريات وأشياء عزيزة في هذه الحجرة؟ فالحقيبة ما زالت تحمل آثار يدها، وهل بسبب ذلك تقول أننا نفقد الخصوصية في

غرفة الفندق، وأننا لا نكون محزونين حينما نغادرها؟

ربما لديه شيئٌ سيقوله لي.. صحيح أن هذا السرير الذي قضيت به الليالي الساهرة على مدى أسبوع من عذابي أنا الرجل العاقل أضغط الوسادة على وجههي بشدة باكيا، تلك الوسادة التي تحمل شعاراً لاسم الفندق على أحد زواياها.

كيف أنتصر على نفسي وأتركك؟ أتركك ياأكبر فرحة عرفها قلبي ولكن يجب أن أفعل ذلك يجب أن أبتعد، يجب أن أغلق كل شيء و أن أطوى حياتي الماضية كلها.

حياتي الماضية التي ستبقي مفاتيحها في هذه الحقيبة، جلست على ركبتي ثم أغلقت الحقيبة بقسوة وكأنني أريد أن أؤثر في شيء ميت.

ياإلهي..! لقد كنت أنا من يحرك هذا الجرس الذي يرن هناك في آخر الممر.

ياإلهي..! إنه النادل..! «من فضلك هل يمكنك أن تحمل أمتعتي إلى الباخرة؟»

ولهذا أحبك حقا ياحجرتي، ثم سألت نفسي بصوت مسموع، أليس من الصعب أن أرحل عن وطني؟ ثم عدت من الدهليز لألقى على الباب قبلتي الأخيرة وأودع النوافذ التي أري منها الشفق.

نزلت إلى المطعم فلم أستطع أن أرحل كالهارب من شيء ما، يالها من لحظة نادرة صعبة..!؟ أو احتراما لهذه اللحظة يجب أن يكون هناك نصيب لما يسمي نخب الوداع.

وعندما نزلت على السلم لم يكن هناك شيء مسموع سوى صدى

قليل لخطواتي على درجاته المفروشة بالسجاد، نظرت حينها بتعالٍ إلى المرآة لأري نفسي وأنا أنظر ساخراً إلى أعلى بعينى البنيتين، و حركة فمي تعبرعن احتقارى لذاتى، انغمست في تهكمي هذا وفي عنادي لعواطفي. ذلك العناد الذي شعرت أنه تصاعد فجأة بداخلي بعد فترة من الزمن وكنت أود أن أُبقي على هذا الشعور. ولكن شعرت أن الأرض وكأنها انشقت وأن تهكمي وعنادي تضاءلاً بسرعة كبيرة، وعندما دخلت صالة الاستقبال في المطعم شعرت بحصيرة خشنة من الخيش تحت قدمي، لقد وقع معطفي من على كتفي لأجده في يد النادل.

هناك أمام تلك المرآة وقفت هي في فصل الربيع وأخذت تصفف شعرها وقبعتها، كانت قاعة الطعام مضيئة وكأنها ليلة عرس، وفي الحجرة المجاورة توجد أصوات وقبعات نسائية وحاملة صدر بيضاء، جئنا ذات مرة إلى هناك مع جميع أفراد العائلة لتناول العشاء وذلك قبل أن يسافروا إلى الريف أما الآن فالقاعة خالية- تقريبا- وتوجد هناك أمام باب الحجرة مائدة طعام مستديرة في منتصف الحجرة يتحرك حولها رجل أصلع صغير الحجم، هذا الرجل الذى كان يقرقض شيئا ما كالقشرة، ويمسك في يده اليمني شوكة، كما أن هناك رجلان آخران يرتديان ملابس السهرة الرسمية وهما يعملان ككاتبان في مجلس الشيوخ يبدو أنهما قد عادا من إحدي الاجتماعات يجلسون في متواجهين في القاعة على منضدة صغيرة مستديرة كانا على وشك أن يتلامسا بجباههم وهم يخوضون في الحديث عن شيء من الواضح أنه هام.

ذهبت لأجلس في أبعد زاوية في القاعة وذلك بعد أن سرت في المكان كله ثم ذهب النادل من مكانه ليذهب إلى الناحية الأخرى. لا أعرف ما الذي ينبغي أن أطلبه.. سأطلب خمراً ساخناً.

ولكن عندما جاء طلبي وبدأت تقليب المشروب لم أكن أفهم لماذا أنا وحدى من بين هذا العالم هنا في منتصف الليل وأشرب خمراً ساخناَ !؟ ولكن كيف فقدت كل قوتي هكذا بعد رشفة واحدة فقط..! انهرت فجأة على الأرض ولم أعد أتمكن من الحفاظ على اتزان رأسي.

وبذلك انهار معي التهكم والعناء وسقطا من فوق علىائهم المزيف.

حدث ذلك لأن كل شيء أصبح ميئوساً منه ومحزناً بشكل رهيب لقد كانت أملي الأخير فهي التي جعلتني أقف من جديد بعد أن كنت يائساً محطم النفس، أردت أن أبدأ حياة جديدة وأن أؤثر فيمن حولي وأن أبذل كل طاقتي فيما هو مفيد.

كنت حقا على استعداد لذلك، ولكن عاد كل شيء فيما بعد كما كان، جلست في هذا المطعم وكأنني أجلس على شاطئ كئيب وكنت أعتقد أني أودع هذا المكان للأبد، كنت أشعر دائما أنني أصبحت كبير السن وضعيفاَ، فأنا لم أعانِ قبل ذلك من مشاعر قد انكسرت بداخلي ولم أشعر بتلك الآلام ولا بهذا الضيق الذي

يملأ صدرى، ولكنى ضعفت الآن وأصبحت مثل حصان عجوز كادح.

وفي الليالي الأخيرة أفصحت عما في صدرى وشكوت ما بداخلي، شعرت بعدها أنني لم أعد أشكو ثانية، وأنه لا يمكن أن أحزن مرة أخرى، فلو كان بإمكاني طرد هذه الذكريات من داخلي، لأصبحت سعيداً، ولكن تلك الذكريات إعتادت ألا تفارقنى، وتزورنى دائما في شكلها الذي اعتادت عليه. أري كل شيء وكأنه حقيقياً رغم أنه يأتي في صورة أكثر شحوباً وفقداناً للون.

عرفتها مذ كانت صغيرة، رأيتها أول مرة عندما عرفني أخوها على العائلة وقدمني لهم على أنني صديقه المقرب، أما الأم فهي أرملة هادئة لطيفة وذات مظهر يوحي بالطيبة والرقة. كما أنها ذات شعر شائب من الواضح أنها تعيش فقط من أجل أطفالها.

جاءت القهوة وجاءت سلة الخبز تحملها فتاة صغيرة ذات عيون بنية نظرت بشكل واضح في عيني ولم تبذل أدني جهد لكي تسيطر على هذا المرح الذي يملؤها، ثم انحنت تحيةً لى وكان انحناؤها عبارة عن انحناءة صغيرة متقطعة.

وكأنها انحناءة ضرورية أرسلها القدر لى ولكنها لم تدم طويلا مثل قصر ملابسها.

نشأت بينها وبينى صداقة جميلة، فأنا أزور العائلة دائما، والصغيرة تذهب إلى المدرسة وكنت أنا أذهب إلى الجامعة وكنت أحيانا أقوم بإحضارها من المدرسة وأحياناً أخرى استبق الخطو تجاهها

عندما أراها عند ناصية الشارع وفي الأحيان التي لم أرها فيها أجد كأنما كرة من الثلج تتسلل إلى ظهري، وعندما ألتفتُ إليها أجدها تضحك وتكور كرة أخرى في يدها التي أحمرت من البرودة. كانت دائمة الإشراق حيث تميل قبعتها على جانب رأسها وتعلق القفاز بدبارة على أحد جانبيها وكأنه حقيبة يد، أحيانا كنت أقابلها وأنا عائد إلى المنزل عند حوالي الساعة الثامنة وذلك بعد سهرة قضيتها في العربدة، وفي تلك الليلة يبقي هذا اللقاء في ذهني طوال الليل، و لم تشعر(أنَّا) من أين قدمت هذه الليلة، كانت فقط تتجه ناحيتي لتوكزني أثناء مروري، بعد ذلك أعود إلى المنزل فأنزع ملابسي عني وأقوم بغسل كل شيء علق بي من أثرهذه الليلة الساهرة، ثم استلقي على سريري الطاهر فأراها أمامي للحظة وكأنها طائر صغير نقي يعرفنى وأراه دائما في طريقى ثم سرعان ما يطير من أمامه.

كانت تفخر بفارسها الذي يقوم دائما باصطحابها حتي باب المدرسة، عندما أقابلها أجدها لا تشغل بالها بأن تنحني لي، أما أنا فأقوم برفع القبعة لها وكأنني أمام سيدة ناضجة، وتعبرالشارع حتي الجهة الأخرى تاركة ذلك الحشد من الفتيات ثم تعطيني الكتب كي أحملها وكانت تفعل ذلك لتباهي بمعرفتي صديقاتها.

وأحيانا يخطر ببالها أن تقول لي:

«تعال معي من فضلك فالبيت قريب».

بالطبع يوجد إسمي في ألبوم الصور الخاص بها وبجانبه قصيدة

وأعتقد أنني كنت دائما قدوتها.

وبعد ذلك خطبت وفي أول زيارة أقوم بها إلىهم مع خطيبتى، لم تتحرك«أنّا» لكي تأتي إلى غرفة الصالون وأرادت أمها أن تدخلها ولكنها أجابت«لا لن أدخل» وأخذت تخدش الصور الموجودة على زجاج النافذة حيث رأيت كل هذا من خلال الباب وسمعت الأم توبخها قائلة:

«لا تلوثي النافذة هكذا» يا«أنّا».

جلست خطيبتي على طاولة الطعام وأخذت تشاهد الصور فشعرت للحظات بضعف مشاعري تجاهها، فملامحها بدت لي خشنة وعادية للغاية وذلك عندما نظرت إليها وهي قادمة تجاهي.

ومن اليوم التالي حكي لي أخاها وهو يضحك أن«أنَّا» قالت عن خطيبتي المعلمة في مدرسة الفتيات الثانوية، أنها«قبيحة» و«متكبرة» وأنه لا أحد في فصلها يستطيع أن يتحملها فكيف أفسر كل هذا؟ كيف..!؟

ومن ساعتها اختفت عن نظري وفكري لسنوات طويلة، أديت اختباراتي وسافرت إلى الريف ولم أزر مدينة هلسنكي إلا نادراً، ولم يكن معي أية صورة لها سوى واحدة وهي تلميذة في المدرسة الثانوية الفنلندية للفتيات لقد أصبحت أكثر خجلاً فحين يقوم أخاها بمداعبتها تذهب شاعرة بالإهانة ثم تختفي.

رأيتها منذ عام على هيئتها الحالية، لقد فاض الكيل من سوء الأوضاع والحياة في الريف والمدن الصغيرة التي أعيش فيها منذ أن

عملت معلماً، فسخت خطبتي منذ زمن ولم تنجح أيٌ من علاقاتى الجديدة بالجنس الأخر، ثم سنحت الفرصة للسفر إلى الخارج وذهبت إلى هلسينكي في فصل الربيع كي أتعلم اللغة الفرنسية، وذهبت إلى هناك والفراغ يملأ نفسى، هذا الفراغ الذي أصابنى أثناء وجودى وحدى بالريف وفي الزوايا المنعزلة في المدن الصغيرة، التي كأنما يجف بها نبع الحياة وتتضاءل فيه روحى وتعانى.

لم يعد لى أحد فقد توفي والداي ولم يكن لي أقارب آخرون ليقفوا إلى جانبي، ولذلك لم يكن لدي أي التزامات تجاه أحد، لذا استطعت العيش خاليَ البال، ثم عدت مرة أخرى للاستمتاع بالحياة في هذا العالم الكبير قبل أن أستسلم للشيخوخة، أظن أننى شعرت بنفس مشاعري حينما كنت طالبا.

ذهبت مباشرة للبيت القديم المعروف وقرعت الجرس، ففتحت لي فتاة ناضجة -ما زال لدي ذلك الشعور- وهو أنني بمجرد أن أري ملامحها وعينيها وشعرها الطويل وصدرها الممتلئ وقوامها الممشوق يتوحد كل هذا في وحدة واحدة تنغرس في جوارحى في لحظة مثل ألوان في لوحة واحدة فترتسم صورتها في خيالى.

وسرعان ما وقعت في حبها وتعلقت بها كثيرا، وربما يرجع ذلك الحب لتلك المشاعر القوية التي تمكلت من رجل ناضج وذو خبرة مثلي، فهذه الفتاة بدت لى وكأن لديها كل ما بحثت عنه ولم أجده حتي الآن. إن ما أرَّق حياتي وجرح مشاعري ليس أحد ملامحها الصغيرة أو حركة من حركاتها أو حتي نبرة صوتها، فعندما أحببت

من قبل شعرت دوما ببرودة عواطفي و بنوع من الإحتياج إلى طول الفترة التى استطعت فيها تصيد الأخطاء والحكم على من أحب بأنها ذات مشاعر باردة. وكان لدي شعوراً دائماً بأن حبي لها سيقل مثلما قل حبها لي، أما هذه المرة فليست لدى القدرة لتفسيرأسباب ذلك وتحديد موقفي من أنها كذلك وليست كمن سواها، لقد تسللت لتسري في دمي منذ اللحظة الأولي واقتحمت كل شريان وعصب في جسدي مثلها مثل النبيذ الطازج الذي يجعل المرء أصغر سنا ويمنحه القوة.

قالت وهي باسطة يدها مسرورة لتصافحني: «مساء الخير!».

كدت أقول لها أنها امرأة ناضجة وأنني أشعر بأنني أتعرف علىها لأول مرة، ولكن هناك شيء منعنى من ذلك، شعرت بحاجة غير مفهومة إلى إقناع نفسي بأن فارق السن ليس كبيرا فهو كحد أقصى خمسة عشر عاماً، أحسست ذلك الفرق سريعا أثناء دخولي ورائها إلى غرفة الصالون.

نظرت«أنَّا» من النافذة لتنادي على أمها ثم التفتت إلى الخلف ونظرت تجاهي ومع كل حركة تقوم بها كنت أشعر بأن صداها يتردد داخلى وأشعر كذلك بغليان دمي مع كل واحدة من تلك الحركات.

لقد شعرت بنفس تلك المشاعر قبل سنوات وذلك عندما وقعت في الحب لأول مرة، فأنا أبحث عن حبيبتي في كل مكان كى أقابلها صدفة، وكنت اختلق كل الحجج الممكنة لزيارة عائلتها، وعندما يأتي الليل أذهب لأسير أمام نافذتها ذهابا وإيابا، كنت أفعل ذلك دوما قبل النوم، وأهملت جميع التزاماتى ولم اهتم بالاستعداد للسفرمن أجل تعلم اللغة الفرنسية، وفعلت كل هذا ابتغاء وصالها بينما ظل الطلاب مع معلمتي في نفس مستواهم الدراسي، أما أنا فقدحاولت فقط اجتياز الاختبارات بأقل الدرجات.

جاء فصل الربيع وارتفع منسوب المياه في البحار، وحان وقت السفر إلى مدينة لوبيك بواسطة واحدة من الباخرتين المسافرتين أولا، ولكننى أرجأت الرحلة حتي إشعار آخر، كان الجو حينها حاراً للغاية في الجنوب، وفي باريس فالأعداد مكتملة طوال الأسبوع الأول للعرض،.... إلخ.

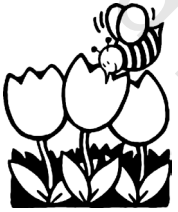

كنت أذهب أنا و(أنَّا) للتنزه سوياً، فأحيانا ننظر من فوق الجبل على البحر الأزرق المتلألىء وعلى المينا حيث ترسو المراكب وترفرف الأشرعة، وتحيط به تلك المنازل البيضاء اللامعة،التي تطل على الشاطئ وكنا نجلس قبيل الظهيرة أمام الكنيسة ونري

الفتيات بملابس التصييف الملونة يتدافعن حول النافورة وفتيات صغيرات يبعن وروداً مقطوفة لتوها، وفي كل مرة ذهبنا فيها إلى هناك تُقطف لها باقة من ورد البنفسج فتضعه على صدرها وتشتم رائحته العطرة وسرعان ما تنشغل عنه في نفس اللحظة، أما أنا فأظل سعيدا بهذا ولم أشبع من النظر إلى البنفسج وهو مستقر هكذا في عروة قميصها على صدرها.

وددت فقط معرفة إن كانت تحبني أم أن هناك شخص غيري في حياتها، وفجأة انتابني شعوربالخوف السفر بعيدا لفترة طويلة خلف الأفق على الجانب الآخر من الجبال والبحار البعيدة.

ذات مرة قلت: أحيانا لا أشعر بأية رغبة في أن أرحل عن وطنى فنلندا.

ولكنها لم تلحظ شيئاً في صوتي أو حتى نظراتي هناك عند النافورة ووقفت لتحيي أحد الطلاب المارين وكان طالبا طويلاً ووسيماً ثم ربطت شفتيها بزجاجة المياه وقالت بابتهاج وهي في نفس الوقت لم تنشغل بنظرها عن الطلاب: ولما لا ؟ من المؤكد أنه سيكون شيئاً جميلا إذا سافرنا إلى الخارج ورأينا العالم الواسع. .

قلت لنفسي أواسيها: «لا بد وأنها هي الأخرى وقعت في حبي» ولكن تعذبت أكثر وأكثر عندما فكرت في سفرى وستظل هنا وربما أعود فأجدها مخطوبة، فأنا أشعر بالغيرة علىها من كل شيء لأنها بدأت تلفت الأنظار، فدائما يلتفت المشاه لينظروا إلىها، فمجتمع الرجال في هلسنكي اكتشف فيها جمالاً فتانا، وهى لاحظت

ذلك أيضاً، تتورد وجنتيها أحيانا من فرط هذا الاعجاب الواضح والمبالغ فيه من المارة، فأنا أراقبها من بعيد وأتابع كل حركاتها وكل لون يطرأ على وجهها، ولكن فجأة وبدون أية مقدمات وجدتها تتسامر معي ببهجة وحيوية كما حدث ولم يعجبني، وأحيانا أخرى تجلس شاردة الفكر وتتعامل معي بشكل مُقِل وكأنها تريد أن تثيرني.

وبعد أسبوع حملت نفسي على قرار حاسم وهو أن أصارحها بمشاعري، ولكني أرجأت ذلك يوما بعد يوم وفي كل يوم أحد من أول شهر يونيو كانت على وشك أن تسافر إلى الريف.

اكتظت محطة القطار بالطلبة، وهى تسرع مع أخيها إلى الأمام، أما أنا وأمها نندفع وسط هذه الحشود خلفهم ونحمل جميعاً الحقائب في يدنا، ثم دق الجرس للمرة الثالثة وأنا مازلت لم أودعها للمرة الأخيرة التي أتمني فيها أن تصلها مشاعري عبر نظراتي وضمة يدي، ثم صافحت الأم سريعاً وتمنت لي رحلة سعيدة وكان يبدو علىها التأثر بالموقف، أما «أنّا» فظلت هناك بجانب النافذة محاطة بحشد من صديقاتها الفتيات اللاتي لم يغادرن المكان بعد، واللاتي لم استطع أن أدفعهن بعيدا، بمجرد أن تحرك القطار وأنا اتتبعه بنظري وهو يزيد من سرعته، نظرت«أنّا» تجاهي وأشارت لي بفرحة وسعادة ثم استدارت مرة أخرى.

ياله من يوم شاق في هذه المدينة الساخنة التي كادت أن تنتهي !.

وياله من ملل سيطر علىَّ وأنا في تلك الساحة الممتلئة بالغلمان

والحراس والخادمات!، وكم تأذيت من تلك الموسيقى الروسية التي لم تتوقف، أما الكنيسة فأمامها جموع غفيرة ولا أحد يستطيع الدخول فيها.

تجولت على الساحل الجنوبي ثم ذهبت إلى منطقة سكاتودين وجلست هناك طويلا ولم أعلم لماذا تزداد آلامي كلما رأيت البحر بقواربه الشراعية التى تبحر فيه، ليس هذا فقط بل يصبح الأمر غير محتمل عندما أري أحد القوارب البخارية ذات الأعلام الخفاقة وهي تنقل المسافرين المبتهجين إلى خارج البلاد، حيث لا أستطيع الجلوس أكثر من ذلك وأعود مرة أخرى إلى المدينة.

خطر ببالي أن أذهب إلى بيتها، أخذت مفاتيح الشقة من صاحبة المنزل بحجة أنني مكلف بتوصيل شيءٍ ما إلى هناك، وجدت جميع النوافذ مدهونة بالجير ووجدت الصور والنجف والمرآة ملفوفين بقماش أبيض، وعلى ترباس حجرة الاستقبال وجدت قبعة معلقة يبدو أن أحد اً نسيها ووجدت البيانو مغلقاً، شعرت ساعتها بأنفاس تشبه أنفاس النائم الذي استيقظ من النوم للتو بعد أن تم ازعاجه. وبقلب خافق دخلت الحجرة فوجدت السرير خالياً، ووجدت ورقة وصندوقاً كرتونياً خالياً من الموقد، وعلى تسريحة الحمام وجدت جوراباً قديماً متهتكاً فضممته إلى صدري، ثم قلت لنفسي أن هذا شيء سخيف ومضحك. فالجميع سيضحكون مني إذا علموا أنني أتواجد هنا الآن، ولكن كله يهون، والشيء الجيد هو أنني أحبها بجنون وبلا أمل.

جلست طويلا على الأريكة في غرفة الصالون، احيانا يرتعد المنزل بأكمله حينما تمر سيارة بالشارع وفي وسط هذا الصمت الذي ساد المكان لم أسمع سوي زن الذباب.

إنها لا تحبني فأنا بالنسبة لها شخص عادي تماماً، فهي لم تفكر ولو مرة واحدة أن تودعني وبالرغم من ذلك مازال لدى أمل.. ما زلت أحاول مواساة نفسي بأنني لم أقل لها أي شيء، وبالتالي فهي لا تعرف شيئاً عن مشاعري تجاهها ولكن متي ستعلم ؟

تصبح(أنِّا) أجمل حينما ترتدى ملابسها الصيفية الخفيفة حاسرة الرأس تمسك بمظلة تقيها حرارة الشمس، هى وأخيها يسيران في المقدمة وأنا و أمها من خلفهم.

آمل أن تنتظرنى هناك عند المفترق لكنها فتحت فقط الجزء الخلفي الذى يقود إلى الطريق التى تؤدى مباشرة إلى خطوط السكك الحديدية، وتركته مفتوحا دون أن تنظر إلىنا حتى.

قالت الأم:

«نحن نسكن هنا وحدنا كأنما نسكن في الصحراء»

كنا جميعا نحب أن تأتى إلينا(أنِّا) وكنا في غاية السعادة حين وصلت برقيتها أما كونها تعتبر الجميع سعداء فهذا يحتاج إلى مزاج جيد، وعند الجزء الخلفي التالى استدارت وسألت والدتها عن مفتاح صندوق الشاى فأجابتها :

هناك على المنضدة في حجرة البوفيه.

ولكن هل لى أن أناديها باسم الأم مرة أخرى ؟

كان هذا نوعا من السلوى بالنسبة لى، فكونها تسير في المقدمة لم يكن تعبيرا عن حالتها المزاجية مثلما خشيت، بل كانت تسرع الخطى كى تقوم بترتيب المنضدة التى يوضع علىها الشاى.

طال جلوسنا على مائدة العشاء وكانت(أنِّا) تتحرك منهمكة كما لوكانت نادلة ولم تجلس إلا حينما بدأت في احتساء الشاى وجلست في المقعد المواجه لى مباشرة، واستندت بكوعها على المائدة وو ضعت يدها على خدها، وأنصتت لى على الرغم من اعتقادى حينها وهى تتحرك أنها تريد أن تترك المكان، تحدثت وأنا في حالة مزاجية جيدة، وأصف -بحماس- كيف كانت مدينة هيلسنكى أثناء الصيف، وكذلك إقامتى في الريف والظروف السيئة التى مررت بها في المدن الصغيرة.

واستطعت أنقل إلىها نفس الحالة التى سيطرت علىِّ، وأدركتها تماما فبدت وكأنها تتأمل فيِّ، وبريق الفضول يملأعينيها كأنما تقول: «فلتستمر في حديثك ياله من أمر ممتع أن أستمع لحكاياتك حينما تعود من الخارج» وكأنما أجيبها أيضا :

«حبى لكى بلا حدود وعندما أعود إلى الوطن سأجهز عشًّا صغيرا جميلا من أجلك، وكم ستصبحين سعيدة معى، ولن تحيدى عن الاعتراف بأنه لا يوجد من يقدم لكى أفضل مما أقدمه أنا، ولا في أى مكان آخر، ستنعمين بدف قربى منك وبعذوبتى ورقتى.. سيصير كل شىء مسخر لك وستشعرين معى بالطمأنينة.

لم أرغب في لمسها بل إنى أردت فقط تقبيل جبينها، فالشعورالذى

ملأ قلبى في حبى لها هوأنقى وأرقى معانى الحب.. هكذا أراه.
وبينما أنا في ليلة صيفية مقمرة في حجرة فوق سطح المنزل حدثتنى نفسى بأن أوقظها وأقنعها بأن هذا الشعورمن الحب الروحانى يعطينى الحق في امتلاكها.

فأنا الذى لا أؤمن بشيء مطلقا، أجد نفسى في هذه العلاقة مؤمنا بالخرافات وأتعهد بأننى سأصونها أوبالأحرى منذ ذلك اليوم فصاعدا سأكون وفيا لها خارج البلاد وفي باريس وفي كل مكان.
وبعد هذا القرارأحسست بأنى صبى برىء، وأستطيع أن أؤكد بضمير خالص أننى كذلك أن أحيا حياة نقية يمثل لي التزاما أخلاقيا فيما بعد بالرغم من أننى في الماضى دائما لم أكن أبالى حينما يتحدث أحد ما عن أمور كهذه، كانت أحلامى على مدى فصل الصيف بأن (أنَّا) صارت ملكى وأصبحت تبادلنى الحب وأننا لن نتمكن من الحديث سويا عن أن كلانا يعرف ذلك الحب المتبادل، ولم أدرك أن هذا وحده هو ما نستطيع فعله-بحكم المحيط الذى نعيش فيه- فأخوها كسول ويفضل باستمرار أن يستلقى على الأرجوحة ويقرأ الروايات، والأم دائما ما تنشغل بشيء له علاقة بتدبير شؤون البيت .
ظللت طوال الصيف عندهم ولم أفكر في رحلتى ولم أفكر في أى

شيء أخر غير الحاضرالذى أحياه وأملك فيه كل ما أتمناه، ياله من يوم سعيد! ياله من حلم يتحول إلى حقيقة! فكل مساء أحيا في حجرة وحيدا وكذلك حين توجد فرصة للوجود بها أثناء النهار.

فكل يوم يشبه الأخر ولكن مع بعض التغيير وكالعادة أنزل في الصباح من حجرتى متعجلا بينما لا يزال الآخرون نائمين، فعندما أنزل من السلم أمر عبرمدخل البيت من أمام حجرة(أنّا)، وأحاول استراق السمع ولكنى لم أسمع أى صوت يتسلل من خارج الحجرة إلى أذنى.

كانت الشرفة لا تزال رطبة بفعل الندى حيث تجلس(أنّا) تحت الظلال والندى يتلألأ فوق الحشائش، وكنت أجلس في إحدى الزوايا أدير ظهرى للشمس الدافئة، و معى كتاب لم أقرأ فيه حيث جلست بالقرب من نافذة حجرتها، كانت هناك ستارة فقط وحينها رأيت -دون قصد- كرسيا وضعت على ظهره فساتين ضيقة الخصر، لكننى رأيتها، وكانت الستارة تغطى سريرها ولكنى كما لو أنى رأيتها نائمة واضعة يدها تحت رأسها واليد الأخرى متدلية على الجانب الأيمن من السرير بحيث تكاد أناملها تلامس الخمرة الموضوعة على الأرض بجانب السرير.

على الشاطىء أرى الخليج الممتد كالمرأة، وألواح الجسر الخشبية تهتز من تحتى، بينما كمية كبيرة من الأسماك تهرع إلى حافة الضفة المنحدرة بشدة بدافع الفضول ثم تفزع إلى البحر مرة أخرى.

قارب التجديف الذى ثبته على الشاطىء لم يتزحزح منذ الأمس و

به صنارة وشبكة الصيد علنى أحتاجها، وهناك على الجهة الأخرى من اللسان تقع محطة القطار.

القارب الأبيض المملوك لمفتش المحطة يلمع في ضوء الشمس على الشاطىء، وهناك قطار للبضائع ينتظر الانطلاق فقد ظل واقفا لساعة حيث كانت أعمدة الدخان المنطلقة من مدخنته تتصاعد ببطىء إلى السماء، فليس في الوحدة ما يدعو للتعجل، ثم دوى فيما بعد صوت الصفارة الرهيب الذى كان يتردد صداه في الضفة الأخرى والقطار كأنما يلهث بصفارته أثناء حركته.

وعندما رجعت إلى البيت كنت أسمع لفترة ليست بالقليلة الأصوات الصادرة من تروس عجلات ذلك القطار تأتى من بعيد، حينها لم تستيقظ أنّا بعد، و مازلتُ جالسا في مكانى -على الأقل لمدة ساعة- في زاوية الشرفة، وتصرفت كما لو أننى أقرأ ولم أكن أعرف ماذا أقرأ !؟، فقد تمنيت وقتها أن تنام(أنّا) بسكينة فأنا لم أكن متعجلا، لكنها صارت ملكاً لى على مدى هذا اليوم الطويل، اليوم مثل الأمس.

في النهاية تتبعت قرع الخطوات المنخفض الذى تسلّل من حجرتها، ثم ظهر شيء أبيض اللون سرعان ما اختفي...ربما هو..... ذراعها المكشوف الذى امتد إلى دولاب الملابس ثم أسدلت الستارة .

إننى أحيا نصف ساعة صعبة وطويلة ومخيفة -هذه اللحظة التى ستذهب بى إلى الخلود- فلربما اعتقدت أن جلوسى هنا يعد

تلصصا منى، ويجب على أهدِّأ من روعى أولا حين أبحث لها عن لحن أسمعها إياه بصوت يملؤه الفرح ثم نهضت واتجهت إلى الشرفة ذهابا وإيابا، وفتح بابها وخرجت منه مستفيقة كالعصفور بوجهها المتورد كطفل صغير ولد لتوه.

وقالت: «صباح الخير»

فأجبتها: «صباح الخير»

ثم وضعت إبريق القهوة على منضدة الشرفة: فنحن لا نضيع وقتا في انتظار الآخرين، بل نشربها سويا نحن الاثنين.

فهى مليكتى الصغيرة ولدينا بيت صغير وحدنا نعيش فيه بعيدا عن كل البشر مسرورين سعداء.

كم أرغب في الحديث عن هذا، وكم أود أن أرسم صورة لهذا الحب الذى تحققت فيه أحلامى، لكننى أخشى أن ذلك الصوت الهامس القادم من بعيد يقتل ذلك الحلم الوليد.

كان من عادتى أن أتحدث في أمور الحب والعواطف بهدوء وسكينة حينما يتعلق الأمر بالآخرين واقتصرت تعاملاتنا الشخصية على مفردات الحياة اليومية كتشاورنا في برنامج اليوم.

أولا.. يجب أن نرى مرة أخرى شبكة الصيد التى وضعناها مساء الأمس فكنت أدفع القارب وهى تساعدنى بالتجديف وأنا بدورى أمسكت بالدفة وانطلقنا في هدوء الصباح عبر منطقة الرور. كان الماء يرتطم بالمجاديف فيتساقط فوق سطح المياه الصافية وكلما أمسكت أنّا بالمجاديف لم نتحدث إلاعن صيد الأسماك وعن المكان

الذى نريد أن نلقى بشباكنا فيه غدا..، فقريبا سوف نكتشف أعمق مكان قد يختبىء فيه السمك، وعندما قذفنا الشباك في الماء، إذا بها تهتز بشدة.... كإشارة لخروج سمكة كبيرة، كانت أنّا تقفز وتهلل من شدة الفرحة عندما رأتها هكذا.

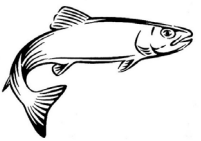

«إنني.. إنني..؟ لكنى سعيدة بهذا.. «اقتربت(أنّا) منى كثيرا وأصبحت أشد ارتباطا بى، وكم كانت منشغلة حين طفت الشبكة على سطح الماء وأصرت على أن تخرج الصيد بنفسها، فلم تكن تسمح لى أن أساعدها حيث أرادت أن تفعل هذا وحدها، كانت متحمسة في هذه اللحظة وهى مشمرة عن ساعديها حتى الكوع والتنورة التى اردتها كانت مرفوعة أيضا، كانت منهمكة جدا لدرجة أنها لم تترك وقتا كي ترفع فيه شعرها من فوق جبينها وكانت ترفعه بذراعها خلف أذنيها، ثم وقفت بعيدا عنها لبعض الوقت كي أدخن سيجارة وكدت أقول لها أننا نحن ولا شك الصيادون الأمهر في العالم.

عادة ما كنا نجدف في فترة الظهيرة كان أخوها يذهب معنا في البداية رغم أنه لم يكن يفعل شيء ومع ذلك سألته (أنّا) بالطريقة المعهودة :

«هل ترغب في الذهاب للتجديف معنا اليوم ؟

إننى ليس لدى وقت !.

ليس لديك وقت ؟ هل لى أن أسأل ما هو العمل الهام الذى يمنعك من المجىء معنا اليوم ؟

فأجاب إننى أقرأ كما ترين.

فقالت: أرنى ما هذا، أهو.. أولد موفل ؟

فقال: أنتى لا تفهمين وعلى أية حال فهذا الكتاب هوأفضل سيكولوجية قرأتها على الإطلاق.

فقالت أعرف هذا وأنت ذاتك مجرد أولد موفل.

ربما لديك حق فيما تعتقد لكننا سنجدف، ولكن على أية حال شىء جيدا ألا يكون جميع الكسالى مثلك أنت.

وأنا بدورى أولى الرأى المعتاد الذى لا يقول شىء عن مفهوم المشاركة الوجدانية اهتماما خاصا وأحاول أن أحوله إلى ميزة.

جلست ممسكا بالدفة وهى أخذت حرصها وجلست إلى جوارى على نفس المقعد واستمعت جيدا لتعلىماتى التى كنت أووجهها لها بصوت واثق به نبرة سيطرة.

وهى كانت ترتدى ثوباً أزرقاً فضفاضاً حاكته لنفسها وعلى رأسها قبعة البحارة الصغيرة تترنح أربطتها المصنوعة من الحرير كلما هبت الرياح، وشعرها الأسود يعلو الجداف الأبيض الكبير الذى يسقط عليه ضوء الشمس الذى يعمى العيون وكذلك ووجهها الجميل الذى لا أمل تأمله أبدا.

هبت الريح بشدة واحتفظت بالندى في يدها واستعدت أن

تتركه مع هبوب الرياح فأمسكته في يدها بقوة وتشبثت بكعب حذائها على أرضية القارب ثم رجعت إلى الخلف كى تعطى توازنا للقارب المهتز. لم تكن أنّا ترتدى ضاغطا حول خصرها (كورسيه) وكانت يدها نحيلة ومشط أقدامها مرتفع. وكنت أنا أتدلى إلى أسفل ممسكا بجانب الدفة في يد وبالمجداف في اليد الأخرى مختلسا النظر إلى قفاها وأنظر كذلك أسفل الشراع إلى الطريق (الموجهة).

وتوالت الموجات واحدة تلو الأخرى والقارب يرتفع وينخفض وأنّا كعادتها دائما تجلس بطريقتها الخاصة وأصبح الشراع والجزء الأمامي من القارب وحدة واحدة، مثل كائن حي أقوده فوق صفحة المياه الزرقاء إلى حيث الجزيرة الصخرية المتلألأة هناك في الأفق.

ومن حين لآخر تنكسر الأمواج على مقدمة القارب وتنثر قطرات الماء حتى تصل للجزء الخلفي وقد غطت وجهها وأكتافها أيضا، وإذا بها تصيح وتضحك فجأة ولم تغير مكانها ولم تترك وقتا لكى تجفف تلك القطرات من على وجنتيها.

مع اقتراب الغروب تناقص هبوب الريح وصاحبتنا نسمة رقيقة أثناء رجوعنا إلى البيت ببطء، كان شراع السارية الأمامية للقارب مربوطاً بإحكام و وطيعاً ولزجاً كما لو أنه دُهن بالشحم، ومقدمة القارب تشق المياه بدون إحداث أمواج، جلست أنّا مرة أخرى في الأمام عند قاعدة السارية وهى تدير ظهرها لى وهى تعبر بنظراتها فوق سطح الأخدود، وأحيانا تغمس يدها في الماء وكانت تغنى

وبدت مستغرقة في أفكارها كما لو كانت وحدها ولو أنى عرفت فيما تفكر ولو استطعت أن أشعر كيف تفكر، في ألم يخطر ببالها ذات مرة أنها ربما تحبنى وأننى أحبها ؟ ولم أقرأ هذا في ملامحها ولو مرة، ولا أستطيع أن أستغل أية حركة واحدة ولا نبرة في صوتها لصالحى.

سأنهزم وأصاب بالحزن ولا أستيطع إسقاط هذا على رحيلى، ترى أين سأكون في مثل هذا الوقت الصيف القادم ؟ ثم سألتها: «كيف ستشعرون عندما أعود ؟» فأجابت :

«أليس صحيحا أنك تريد أن تكمل سفرك؟ وكم ستبقى بعيدا ؟ « فأجبتها : «عامين»..هذا كل شيء.

فلم تبدى تعجبا كما لوأنى مسافر لبضعة أيام في الأبرشية المجاورة، فساعات المساء التى لا يبحر فيها شراع ولا يسبح فيها قارب كانت عسيرة، فحديثنا كان متعبا و بدت أنّا شاعرة بالملل تتوق إلى العودة للبر رغم أنها لم تقل ذلك صراحة لكنه خطأى، فأنا الذى أوقعتها في الأسر وهذا يعذبنى، لكننى حاولت التظاهر بعدم الإنتباه كما لو أننا لم نكن متعجلين، ولو أن الشراع مسدل بارتخاء لأمسكت بالمجداف وأبحرت تجاه الشاطىء في الوقت الذى تمسك فيه بالدفة، ولو لم نكن فوق الماء لجلسنا مع الآخرين في الشرفة كعادتنا، لم أقصر في بذل جهد في أن أكون متيقظا في مجاملتها كما يفعل الرجال المحبون الذين لا يعدُّون في ريعان الشباب أصبح من عاداتها أننى أشبك معطفها وأخذه بعد ذلك مع مظلة المطر

والحذاء في عهدتى فكأنما أصبحت كحامل السلاح الذى يأمره سيده بما يريد دون حتى أن يشكره، جلسنا ذات مرة خارج البيت حول المائدة والسيدات يحكن والأخ أحضر لنفسه الكرسى الهزاز من حجرة الصالون وأنا أتأمل متعجبا من حركات أنّا وهى تعمل، بحثت عن المقص-لو أنى أعرف أين هو لأحضرته لها - «إن المقص يوجد فوق المنضدة في حجرتى»

فوقفت كى أحضره لها، حينها قالت أمها: «أنت تبالغي يا أنّا فما زلتى صغيرة على هذا»

وأضاف أخيها قائلا :

«لو كنت مكانك لما كنت منتبها هكذا فلتحضرى المقص بنفسك يا أنّا»

فقالت: «سأفعل»

وأسرعت قليلا وهى متضايقة دون أن تلقى بالا بما أقول فالموقف كان صعبا على، فأنا أعانى من البداية من فرق السن بيننا رغم أنني عندما جئت إلى هنا نويت أن أعترف لها بحبى، قضيت الصيف كله بالتأمل في ما هو أفضل لنا، وفي نهايةالصيف أصبحت متحيرا جدا مثلما كنت في البداية، كان أحد أيام الآحاد في شهر أغسطس وقبل عودتنا إلى المدينة بوقت قصير، كان ذلك اليوم يوما سعيدا حقا لأنه منحنى بصيصا من الأمل في أن تبادلنى أنّا هذا الحب، وفي إحدى الإبرشيات المجاورة كان هناك حفل حيث سافرت أنا وأنّا إلى هناك فلم يتأثر الجميع بهذا الحدث، وقفنا على الضفة

obeikandl.com

فوق باخرة صغيرة وأمها وأخيها لا يزالون في الخلف، وقفنا على ظهر الباخرة أحمل فوق ذراعى معطفاً واقياً من المطر متخيلاً أننا سنسافركعروسين ليقضيا إجازتهما، وأنا أصنع الأمل في خيالى محاولا إضفاء صِبغة واقعية علىه، تلك الآنسة التى تقف هناك في جهتى وتلوح بمظلة الشمس الحمراء هى سيدتى الجميلة.

أقيم حفل الزفاف ونحن نسافر سويا للمرة الأولى، فاليوم كان مشرقا وجميلا، وكانت الرياح الدافئة تهب من الجنوب والباخرة ممتلئة بالغرباء ونحن نجلس طوال الوقت إلى جانب بعضنا البعض لكننا وعلى غيرالعادة لم نتحدث في شىء ذلك اليوم، لأننا كنا منشغلين بانتقاد الحاضرين ونضحك من الموسيقيين المسافرين معنا على نفس الباخرة، لأنهم عزفوا ألحانا نشاذ، ومن رآنا من الجانب كان يعلم يقينا أننا من العاصمة ومع ذلك فالسيدات والرجال الموجودون هناك كانوا عديمى الاهتمام وغير مبالين بذلك.

جلسنا متواجهين وذلك أشعرنا بالأمان أكثر وكنا نتحدث سويا بلا اهتمام، ربما تعمدنا هذا كما لو كان الآخرون غير موجودين .

اكتظ المكان بالطلاب الذين يرتدون قبعات بيضاء وكذلك السيدات اللائى ارتدين أزياءاً شعبية، فمددت يدى لأنّا فقفزت من الباخرة وفتح الجماهير الهامسون لنا الطريق.

كانت ملابسها أنيقة بشكل ملفت بالمقارنة مع الآخرين واتسم سلوكها أيضا بالوقار وطريقة سيرها بالبساطة. كنت أتلذذ بالانتباه

الذى أثارته، قابلنا في طريقنا للشاطىء رجل يرتدى جاكت من الصوف دليلا على عمله كمعلم في إحدى المدارس الشعبية وعندما رأى أنّا بدا كما لو أن وحياً جاءه من عالم آخر ومن أثرهذه المفا جأة ظل واقفا وتنحى جانباً وكاد أن يسقط في حفرة، وفي الطريق من متنزهنا إلى أرض المعارض كانت الصورة الآتية ترتسم في ذاكرتى :

نسير متجاورين وأنّا تميل قليلا وتخبىء وجهها من حرارة الشمس تحت المظلة وهى تمسك قبعتها بيدها الأخرى، تضع زهرة على صدرها كنت قد قطفتها لها من على حافة الطريق، ترفرف تنورتها بفعل الرياح وكأنما ثبتتها تلك الرياح على ركبتيها، خفق قلبى حينها وشعرت برغبة في امتلاكها وشعرت في نفس الوقت بالألم لأننى لم أعرف إن كانت تحبنى أم لا.. !؟ ولم يتبقَ سوى أسبوعاً على أن أتركها ومن يدرى ما مدى قرب ذلك الفارس الذى سيخطفها منى ؟

واصلنا انتقاد مَن حولنا في أرض المعارض ولم نستطع أبدا خفض أصوات ضحكاتنا من المتحدث ؟، ذلك المعلم الذى قابلناه صدفة في الطريق الذى أخذ المبادرة للحديث عن أول الدعائم التى تبنى علىها الأوطان والأسس التى تتمسك بها الشعوب، هذا المعلم الذى نصحنا بالتصرف بالالتزام أثناء الحفل والحفاظ على ذلك قدر المستطاع حتى يصل كل لوطنه أو مدينته.

سمع أحد الطلاب انتقاداتنا للمتحدث وتأملنا أولا ثم تأمله

باهتمام وبدا ذلك حينما أراد أن يظهر بأنه ليس كالآخرين وأنه لديه نفس وجهة نظرنا واستطاع كذلك إدراك الفكاهة في تلك الأشياء، والسبب الرئيسى في الألوان المتعددة من المتع، تلك الليلة كان الغناء الذى قادته معلمة في إحدى الإبرشيات وكانت ذات أنف طويلة وشعر قصير ترتدى اللون الأبيض، وقد أعتطها أنّا لقب الأميرة وأظهرتها لى فيما بعد أثناء الرقص.

لا يمكن وصف طلعتها وكانت تخفض رأسها إلى الجانب وتثب مثل ناموسة وتتألق من السعادة والحماس، لم يكن عندى من قبل هذه القدرة على الضحك هكذا، ولكنى أحاول الآن اكتشاف أوجه مضحكة لم أراها في كل شيء، ولم ننفصل عن بعضنا ولو للحظة، وسيرنا متلامسين في هذه المدينة وشراؤنا بالتبادل أوراق اليانصيب مثلما نلقى بشباكنا إلى سعادتنا نحن الاثنين، ولدينا شعور واضح أننا كنا أبطال ذلك اليوم وأن جميع الحاضرين أيضا تمزق رأسهم من التفكيرفي في :من نكون نحن ؟، يبدو لى-وهذا شعور طيب- أن الجميع اعتقدوا أننا عروسين، حيث جلسنا على الكرسى الهزاز وأمسكت أنّا بكيس يمتلىء بالبونبون اشتريته لها، ثم وقفت أمامنا طفلة صغيرة ممسكة بفستان أمها وكلاهما ينظر لنا دون حرج وأيديهم تتبع أفواههم.

فقلنا لها: تعالى أيتها الصغيرة نريد أن نعطيكى البونبون.

ثم دفعتها أمها للأمام وأمرتها أن تمد يدها لنا.

ما اسمك ؟ قولى بسرعة لكى تحصلى على البونبون.

فقالت: كايسا.

يجب أن تخرجي إصبعك من فمك يا كايسا.

وبعد ذلك حصلت على حلوى ملأت يدها.

هل تستطيعي الآن أن تقولي شكرا أيتها الجميلة.

فالتفتت الأم كي تشكر أنّا بنفسها.

وقالت: شكرا جزيلا لكي أيتها الآنسة أم أنكي زوجة لهذا السيد.

إحمر وجهي ساعتها وارتبكت وضحكت أنّا من قلبها، وكأنه مجرد سؤال حقير أحمق ومستحيل تصوره وضحكت أيضا ولكن متصنعاً.

وانطلقنا في رحلة العودة، حيث يمتلىء صالون السفينة بالرجال الذين يشربون، وكان الهواء في هذا المكان خانقاً ومفعماً بالدخان وبارداً إلى حد ما، وكانت أنّا تتدثر بشالها الدافيء الصوفي، ثم بحثنا عن مكان فوق سطح الباخرة بالقرب من أبراج الباخرة المنبعث منها دفءٌ غامر حيث كنا نرى الظلال الحمراء المنبعثة من حجرة التشغيل والمدفأة في هذه المرة عندما فتح باب الموقد، استغرقت الرحلة عدة ساعات، وكانت(أنّا) متعبة والنوم يداعب عينيها، ونحن هنا الآن دون أن نقول كلمة واحدة نجلس متلاصقين لشدة الازدحام.

شعرت آنذاك بأن رأسها تستريح بين ذراعي لكني لم أستطع فهم تعبيرات وجهها جيدا، ومن حين لآخر كنت أرى في ضوء تيار الشررالمتطاير من المدخنة باتجاه الجانب الآخر وعيناها مغلقتان ثم

تفتحهما، كانت تلك العينان كبيرتان وعميقتان.
بدأ النور يلوح في الأفق وتلاشى ذلك الشرر وضوء القمر يميل إلى اللون الفضى الشاحب في السماء ينعكس من جهة الغرب في مياه البحرالساكنة.
أصبح المجرى المائى أضيق وضفتيه العالية المستوية على الجانبين ترتفع بشدة في ضوء القمرالفريد المختلط بالماء في ذلك اليوم الممتد حتى الفجر.
لم أغامربلمسها مخافة إزعاجها، أصبحت الآن على يقين من أنها تحبنى ولا أستطيع تفسير لو كانت تحبنى حق لما استطاعت النوم بهدوء هكذا بجانبى، لم تصحُ أنّا إلاعند إطلاق صفارة الوصول قبل أن ترسوالباخرة على شاطىء مدينتنا وأخذت الوشاح على كتفها، حيث كانت ترتعد في برودة الصباح، وكانت سيئة المزاج ونزلت على جسر المرسى دون مساعدتى وذهبت إلى البيت دون انتظارى.
حينها استقبلتنا أمها بالقهوة الساخنة، وتمنيت آنذاك لو نبقى سويا للحظة أخرى ونواصل حديثنا عن الحفل وتوقعت أنها ستحكى كم كنا سعداء حيث لم يتعرف علىنا أحد ونحن الذين انتقدنا الجميع، لكن يبدوأنها نسيت كل هذا.

قالت الأم: «هل قضيتم يوما سعيدا ؟ فأجبت : «نعم بالفعل»، ثم تثائبت(أنّا) دون حتى أن تنظر لى، وذهبت إلى حجرتها فقد غلبها النوم وهمهمت قائلة: «تصبح على خير».

أما أنا فلم أستطع النوم وظللت راقدا في سريرى الذى يعلو حجرتها مباشرة وحتى شروق الشمس وبدأت تدخل عبرالنافذة المفتوحة بينما تردد صدى صوت ضربات المجداف القادم من جهة البحر، وكذلك صدى صوت ماكينة إزالة الحشائش القادم من جهة المراعى.

سمعت قرع خطوات في الفناء وصليلا أحدثه باب المطبخ وبدأت العصافيرتغريدها في المكان الذى طلعت عليه الشمس، لم يحدث هناك شيء إنها لا تحبنى ولا أمثل لها شيئا ومرافقتها لى بالأمس لم تكن سوى صدفة، إننى مجرد طفل لأننى بالغت في هذا الأمر كثيرا، والآن فقد اتخذت قراراً بالرحيل في اليوم التالى.

و حينما أردت حزم أمتعتى بعد ذلك عادت تعاملنى بلطف من جديد، حيث جاءت إلى حجرتى وساعدتنى، فكبرالأمل فيَ ثانية، ثم قلت لها أحبك فأسرعت واختفت من أمام عينى، لا إنها لا تحبنى أو ربما تعتبرنى صديق أو أخ كبير أو بالأحرى عم أو خال كم كانت هذه الدقائق عسيرة على نفسى، لأننى لم أكن على درجة من الرشد تجعلنى أرحل. سأبقى وأسافر فيما بعد بواسطة نفس القطار مثلها وأجلس في نفس المقعد مثلها أيضا. حاولت الجلوس أمامها مباشرة ولم أستطع التوقف عن النظر إليها

وهى لم تكن تعرف إلى أين تتوجه بنظراتها، فتارة تحاول القراءة وتارة تنظر من النافذة، وأخيرا نزلت(أنّا) في المحطة ووقفت على الرصيف حتى جاءت أمها وعادت تناديها، كم كنت سمجا معها وربما تغلق في وجهى كل الأبواب، ثم تردد صوت النادل بقوة في أذنى«لقد أغلق» ثم استيقظت من ذكرياتى وكنت قد شربت مشروبى الروحى حتى النهاية دون وعى منى بما أشرب، كانت مصابيح الغاز تنطفيء واحدا تلو الآخر و كنت أذكر نفسى بشدة بأن الضيوف انصرفوا من الحجرة المجاورة عبر القاعة، جلس أمامى رجل قصير أصلع الرأس ممسكاً بزجاجة نبيذ نصف ممتلئة.

ربما كان أحد الأعيان فقد ارتدى(صيديرى) وذهب وأخذ يصقل ياقته والنادل يقف حاملا فوطة فوق ذراعه من خلفي وبدأ في رفع الأكواب، أنا الآن وحدى في هذه القاعة الكبيرة، فالشعلة المضاءة بالغاز تحترق فوق رأسى وتظهر في مرآة الحائط المقابلة لى في ذلك المكان الذى أظلم فيه كل شيء، ولم يتبقَ سوى لوح غير مصقول بعد أن أزال النادل كل فوط المائدة، ثم نهضت وذهبت إلى مدخل القاعة حيث وجدت شعلة واحدة فقط ربما تنتظر ذهابى، أرتديدت معطفي وأخذت قبعتى ووقفت أمام المرآة وأنا أصفف شعرى بالفرشاة ورأيت نفسى بالكاد في هذا الظلام. كنت أحدث نفسى بأننى سأصبح قريبا أصلع الرأس وبدت ملامحى شاحبة وجافةومترهلة وأصبح جبينى متشقق.

إذن فماذا تفعل أنّا برجل مثلى..!؟ أشعر أننى سأكون أسعد

إنسان على وجه الأرض لو أنها أشفقت وأسفت لى، فإعادة الحياة تقبع هناك فوق جبل قفر لا يسمع من كهوفه الكثيرة شيئا على الإطلاق..!.

وعلى حائط الممر رُسمت يدٌ سوداء مكتوب أسفلها بخط عريض كلمة «قاعة الطعام». لذا سأرحل إلى باريس فقد تصورت هذا بشكل مختلف، لكن الحياة على أرض الواقع ربما تكون هكذا دائما كما أعتقد.

أسير وحدى في الشوارع وأرى ساعة برج كنيسة نيكولا في إحدى الأركان وتشير عقاربها إلى الثانية، فقد قررت ألا أنام هذه الليلة ولم أعرف يقيناً أنى سأتسكع في شوارع المدينة أو أصعد إلى جبل المراقبة، وحينما سلكت الطريق عبر ميدان السوق تلقائيا لم أشعر بالارتياح لتغيير اتجاهى، وهكذا تجولت مارا بمسلة النُصب التذكارى وذهبت للشاطىء مارا بقصر القيصر حيث وجدت هناك هيكل السفينة الأسود العملاق.

هذا الهيكل الذى ألقى بظلاله على الشوارع الطويلة. وعلى الجانب الآخر من الميناء يظهر ظلا لسلسلة من مصابيح الغازفي المياه الركدة، تصاعد الدخان بين الجسر وحبل السفينة فتعثرت أثناء مرورى أمام الحرس، ثم توجهت إلى الكابينة حيث حجزت لنفسى مقعدا في الصالون الخلفي، يإلهى..!، يالها من حياة صعبة..!.

وقفت في صباح اليوم التالى على الرصيف الأسفلتى خلف الكنيسة المطلة على شارع(اسبلانادا)، ثم سألت القبطان عن

موعد إبحار الباخرة، فأجابنى بعد أن أعطى بعض الأوامر وصاح فوق كتفي قائلا«في تمام التاسعة» والساعة الآن السابعة والنصف وأنا أمر من أمام نصب(رنا بيرج) التذكارى وأتجه إلى الشارع المملوء بالأشجار فهو نفس الطريق الذى عدت منه بالأمس.

كانت الماكينات في مطبعة العاصمة تعمل بكامل طاقتها وقصاصات الورق تتطاير حولها، وبينما تمرمجموعة من التلميذات أمامى وهم يتجهون إلى ناصية الشارع حيث الطريق المؤدى إلى مدرسة البنات الفنلندية العليا كنت أسأل نفسى «ماذا أفعل في هذا العالم» كما يجب علىَّ أن أعرف أننى أمر أسفل نافذتها الآن مرة أخرى و أقول لنفسى أننى مجنون وفي نفس الوقت يحدثنى صوت آخر قائلا: «إهدأ.. ينبغى أن تهدأ أكثر حتى لوأن الجنون قد أصابك حقاً».

لم تغلق المحال بعد في حين عبرت شاحنة في اتجاهى، وبينما كانت تسيرتلك العجلات الضخمة فوق الأسفلت وتعبر من بلاطة لأخرى أصابتنى نوبة ألم بأعصابى فأنا لم أنم جيدا، وشعرت بالتعب الشديد كأنما أجرً قدمين ثقيلتين والشمس تحرق وجهى، ثم دخلت إلى شارع(فريدرش) حينها لمحت نافذتها، ومازال الثوب الأبيض مسدل والزهورالتى خلفه ترتسم بوضوح، وأنّا مازالت نائمة، إذن فهم لم يأتوا عند الباخرة، ولو أن لديها نية لتأتى لأخبرتنى بذلك أمس.

فهمت الآن.. لماذا أصبت بالكآبة أمس، فقد كانت أمها أكثر جدية من المعتاد وأخاها شارد الفكر وهى لم تكن تضيع الفرصة في

التعبير عن رغبة ما في نفسها.

وبينما أقف مواجهاً لنافذتها على الجانب الآخر من الشارع فُتح باب الشرفة ففزعت وذهبت كما لو أننى ضُبطت متلبسا بفعلة قبيحة، وأسرعت دون أن ألتفت، وعرفت ساعتها أن التى خرجت من تلك الشرفة كانت على هيئة امرأة، ولم ألتفت مطلقا إلا حينما وصلت إلى أول ناصية تالية في الشارع، ثم غامرت بأن أدرت رأسى فرأيت الفتاة تنفض غطاء السرير.

لأول مرة أشعر بأننى شيئٌ تافه وغريب لدرجة لا يمكن وصفها، فأنا مجرد وغدٍ كبير يتصرف كتلميذ صغير حيث كنت أكرر ذلك الأمر عدة مرات وأنا أومىء بيدى وأقول: «لا.. إنها مجرد حماقة».

وعبر ميدان(كازرنين) حيث تتدرب سرية الحرس و ضابطا صغير السن يتبختر: «مجرد أبله ساذج» -هكذا بدا لى- وأسرعت بخطا متعجلة إلى الباخرة، وبينما أتأمل الميناء والحركة هناك داهمنى شعور مفاجىء كما لو أننى تجردت من كل شيء وتجاوزته فقد دمرت المناظر الطبيعية مثلى وحدثتنى نفسى عن ذلك، كانت السفينة تنتظر الانطلاق على أحر من الجمر وكانت تزأر كما يلتهم حيوان ضارٍآخر قطعة من فريسته.

يتصاعد دخان الفحم الأسود من المدخنة العريضة من وقت لآخر أمام الشمس، والأضواء الصفراء تلقى بظلالها فوق الرصيف والناس على نفس الميناء، فهذا الميناء يبدو في نعومة الزجاج، ولكن هناك في الأفق وعبر صوت(بليك هولم) رأيت في شعاع الشمس

موجاتٍ متلألأة في البحر اللانهائى، وأحيانا تهب نسمة رطبة من هواء البحر، فهى نسمة دافئة وشعاع الشمس يتجه للسماء لدرجة أن عينى كادت أن تعمى من رؤية حوائط البيوت البيضاء وبرج كنيسة نيكولا المرتفع عاليا وهو يتوج المبانى المجاورة له، كان ميدان السوق يكتظ بالمشترين والبائعين الذين ظهرت فوق رؤوسهم من الخلف حافلة حمراء اللون يدوى صوت أجراسها من وقت لآخر.

ويظهر في الخلف اللون الأخضر الداكن لكنيسة اسبلانادا والبيت الضخم والذى كان يرفرف فوقه أحد الأعلام المضحكة، ساد هذا السوق انسجاما مزعج وتمتد سلسلة من الأعمدة الجديدة البيضاء التى يعلو قمتها أسلاك ضخمة من مبنى الشركة إلى صالة البيع، أريد أخذ هذه الصورة المشرقة كتذكار لوطنى، تلك الصورة التى أرغمتها على أن تحفر في وجدانى من خلال تأملى للملامح التى تظهر لعينى عدة مرات، في حين أنى لا أريد الاحتفاظ بذكرى أخرى غير هذه، فما عدا ذلك يجب أن يختبىء تحت هذه الألوان المعبرة عن الحيوية.

كانت الباخرة تبتعد ببطىء عن الرصيف مستعينة بالحبال

والشراع متجهة للبحر، ونظرات الباقين والراحلين تتلاقى حينا بالصدفة تبحث عن بعضها وتتشتت ثم تتلاقى من جديد، وكلما ابتعدت السفينة كلما اختفت معالم المدينة أكثر وبدأت المناديل تلوح مثل النار التى تم إشعلها من أجل الوداع الأخير، وفجأة تراءت لى القسمات الرقيقة والوجه الصافي وصوت خصلة الشعر إنها أنّا التى أريد أبحث عنها وسط هذا الجمع على الشاطىء، رغم أننى أعرف جيدا أنى لن أجدها بينهم، و لكنى استحضرت الطبيعة أمام هذه الصورة المغرية، إننى لا أريد رؤية شيئ آخر غير الميناء والبيت والسماء الصافية، رأيت كل ذلك و قارب التجديف واليخوت والأخاديد المتحركة التى ترتسم فوق صفحة الماء، تصفر البواخر الصغيرة بحنق في الميناء، تلامس الجزء الأمامى من سفينتنا مثل الذباب الذى يضايق ثورا ليس له حيلة.

ثم ينفخ الثور من فتحات أنفه ويسرع في طريقه عبر(لانجينسوند)، كانت نوافذ المنازل تختفي من على الشاطىء وتتوحد كالخطوط التى تتوازى فوق بعضها البعض، لم أعد أسمع ضجيج المدينة وبدأت أصوات الباخرة القوية الرنانة تتسلل إلى أذنى لأول مرة، وانطلقنا بسرعة مارين عبر(سافيابورج فيللن) التى ينظر إلىنا منها(كانونين لوكا) أجوف وأسود.

نحن في الخارج وسط البحر المترامية أطرافه، وأنا أسير بين الرياح الناعمة فوق ظهر السفينة هنا وهناك ومدينة (هيلسنكى) تتوارى أكثر فأكثر فكأنما يغرق الوطن في الماء، ويبدو لى شاطىء فنلندا

كطريق ضيق ممتلىء بالدوائر، وأرى سحابة حمراء تميل للون البنى، والآن لا أرى شيئا غير السماء الزرقاء والبحر الأزرق يتلألأ لأ على المدى من كل اتجاه، من بعيد.. فوق الأمواج أرى شراعاً أبيضاً، وحاولت التأكد من أنه يسبح في شواطىء مدينة هيلسنكى، انعكست الشمس من مياه البحر شعاعاً أمام مقدمة السفينة و الأمواج تمزق وتضرب هذا الشعاع ثم يتكون طريق عريض هناك من الشعاع المبهر(الذى يعمى العيون)، بحثت عن شىء جديد باستمرار في المحيط الذى أنا فيه يستأثر بنظراتى، واحتفظت بالصور التى مرت أمام عينى وأسحبها كنسيج شفاف أمام الماضى، فكل منظر كان كحجاب جميل، وذابت حياتى الحالية بذكرياتها في الألم أثناء اليوم الأول مثل ظلال بعيدة عديمة اللون تُرى بالكاد خلال الضباب وبريق شعاع الشمس، إننى لم أعد أعرفها فهى ليست ذكرياتى ولا تخصنى إنها مجرد صور قديمة غير واضحة، أطوف وكأننى مخدر وكأنى في حلم وكما لو أن وعيى لم يرد أن يصحو، والبحر يضفي على خمول وهدوء مريح ويدخلنى في حالة من اللامبالاة ولم يجل بخاطرى ولو فكرة واحدة، ونامت مشاعرى في نفس اللحظة التى تصحو فيها، فلا أنا أستغنى عن شىء ولا أنا أتمنى شيئاً، وسأجد نفسى قريبا في هذا الموقف وفي كل المواقف، وفوق ظهر السفينة وأنا أتمدد على كرسى وأدخن سيجاراً مخدرا، حدقت عينى في البحر المترامى وفي السماء التى خلت من السحب والأمواج الصغيرة المتلاطمة التى ضربت مقدمة السفينة

في غفلة وتكتسى برغوة مثل شخص يستحوذ علىه النوم ودون امتلاك قوة لرفع تلك السفينة الطويلة والثقيلة، تراءت لاحت في الأفق بعض المركبات التى توا جدت في الظلال تصعد مثل فراشات كبيرة سوداء في مواجهة ستارة بيضاء، وعلى الجهة المقابلة برق الشراع في الضوء الكثيف فتمكنت من رؤية أشرعة تلك، ثم حولت نظرى إلى سفينتنا مرة أخرى متسلقة حبل الشراع إلى سارية السفينة متأملة الندى والشراع بشكل بدا فيه الدخان المتصاعد من المدخنة كقطع القطن الذى يشبه ذيلاً أسوداً يتسلل خلف الباخرة وتظهر فوق سطح الماء.

كنت ألتقى بنفسى فوق ظهر الباخرة صعودا وهبوطا، وأثناء تجوالى، أو في أثر سير السفينة في الماء، ذلك الأثر الذى لم يتغير..نفس الفقاعات..نفس الرغوات..نفس الأمواج..وبين الحين والأخر.

كانت دوائر فوق الشاطىء ترتفع فوق البحر فتكبر وتكبر إلى أن تحولت لكتلة مرتفعة من اليابس، وها هى الكنائس والمدن والجبال التى تغطى قممها الغابات الخضراء، وهناك أيضا أناس يعيشون ويحلمون أظن أننى أعرف ماذا يجرى هناك، ربما يشق صياد بقاربه الشراعى على الجانب الآخر المواجه لمركبتنا، فلو أنى

obeikandl.com

أقفز إلى قاربه ولو استطعت التجديف باتجاه البر وظللت هناك في عرض البحر فوق واحة في الصحراء دون أترك أى أثر من وراءى، ولو أنى استطعت خلق محيط جديد لحياتى هناك ؟ أعتقد أنه كان يجب أن يتم هذا ببساطة. وسأريد المحاولة هناك إلى أين أذهب..!؟ كلما واصلت كلما كان أفضل، ولكننا نترك البر وراءنا فهو يختفي وسيُنسى.

وبعد ذلك لم أرَ شيئا أخرسوى السفينة والشراع في الأفق تلك الصورة بدت كما هى دائما، اقتربت الشمس من الغروب تختفي في الماء ككرة حمراء و تلامس البحر وتغوص في هذا الطوفان مثل الرجل الذى يؤسس مدرسة للسباحة ويدخل البحر تدريجيا بأطراف أصابع قدمه أولا، ثم يدخل حتى منتصف جسده ثم يغطى رأسه الماء في النهاية ويهبط إلى الأعماق ويختفي.

حل الظلام وانحسر الضياء، وصارت زرقة السماء والبحر تميل للاخضرار وبدأ الضباب في التصاعد ولاح في الأفق خلال الشفق ضوء خافت.

أنارهذا الضوء الخافت طريقنا عوضا عن أبراج الإنارة التى استمرت أحيانا وأحيانا أخرى تجيء وتذهب على فترات متقطعة.

وفي خضم كل هذا كانت السفينة تبحث لها عن طريق وتقتفي آثار وجهتها من خلال المنارات.

كانت الباخرة تدوّى أسفل الغطاء وهى تبدو على وعى كامل بموقعها بل وبأهميتها.

عندما خلد الجميع للراحة وأنا ما زلت وحيدا مستيقظا فوق ظهر السفينة بدا لى الأمر كما لو أن السفينة قبلت الحياة، ولو أن خرير الماء في القاعدة يعنى في حقيقة الأمر لغتها الخاصة السرية التى تفهمها هى وحدها، بينما أستطيع أن أستشعرها فقط.

ولكن حتى جوارحى قد تعودت على هذا المحيط تدريجيا، فلم يعد للإبحار تأثيرملحوظ وكذلك سيل الأفكار والمشاعر السابقة الراكد منذ زمن قد انفتح على هذا المحيط الجديد .

وعندما صعدت في صباح اليوم الثالث إلى ظهر السفينة لم أستطع أن افتح عيناى في ضوء الشمس إلا بصعوبة، وقد رأيت القبطان يراقب باخرة أخرى تصدر الدخان أمامى..«إنها السفينة كابيلا» .

كابيلا تلك التى ظلت راسية خلفنا في الميناء وأرادت أن تغادر الوطن لاحقا، فهى تريد أن تصل إلى ميناء ترافموند قبلنا بقليل.

وأنا متكأ على سور سطح السفينة أتأمل تلك المركبة الجميلة.. داهمنى واحد من أحلام اليقظة.

ها هى(أنّا) موجودة الآن في هذه الرحلة.. إنها هى..(أنّا).. هناك على ظهر كابيلا..! رحلت في الصباح... إذن فهى واقعة في حبى كما أحببتها.

وتظل طوال الليل مؤرقة ولا تستطيع أن تتوقف عن التفكير بى إن وجدتنى تعيسا يائسا، فرحلاتنا الصيفية تشغل تفكيرها باستمرار، وشعورها بالشفقة تجاهى جعلها تشعر كذلك بأنها تحبنى.

وفي الصباح أسرعت هى إلى الميناء، لكن الباخرة كانت قد انطلقت بالفعل.

فهى لم تعرف الراحة إلا بعدأن اعتلت ظهر السفينة كابيلا وانطلقت في رحلتها إلى خارج الوطن، فقد تركت أمها وأخاها وتبعتنى، وهى تسافرالآن إلى هناك وتبتعد بذلك عنى لمسافات بعيدة، ثم وصلت أمامى وإذا بالسيدة الأولى التى تقف أمامى في مدينة لوبيك هى(أنّا)، ثم واصلنا رحلتنا سويا فهى حبيبتى ولن ننفصل أبدا وكل ما عدا ذلك مجرد كوابيس.

عندما بادرت أنا في بادىء الأمر-لا أستطع أن أسيطر على خيالى- جئت بها إلى ظهرالسفينة هنا بجانبى. نجلس أثناء النهار في المؤخرة على ظهر السفينة تحت ظلال قارب النجاة المعلق، ولا أصدق أنى أراها أمامى بقسماتها الرقيقة وبالتغيرات الطفيفة في تعبيرات ووجهها وبعينيها لدرجة أننى أصبحت قلقا مهموما من نفسى وطردت تلك الصورة وأعرضت عنها و تخلصت منها بإيماءة معينة ورافضة، ولكن سرعان ما عادت تلك الصورة أمام عينى ثانية، وفي المساء عندما أنيرت مصابيح الباخرة متلألأة في الظلام مثل نجوم حمراء أو خضراء ، وأتخيل كلانا ندخل في خلوة في مكان ما بتلك الباخرة عند قاعدة العامود أو أعلى قمة فوق ظهر السفينة نتحدث سويا بصوت منخفض ونتدثر بالشال الغامر بالدفيء، وأتخيل أننى أضع يدها تحت ذراعى وهى تضغط على ذراعى برفق وأنا أتصرف بنفس الطريقة.

إننى أحيا في عالم من نسج خيالى فبريق النجوم يشعرنى بالكآبة ورؤية الشررالمتطاير من المدخنة تحرك بداخلى رغبة في ترديد الأغانى الشعبية الحزينة.

ربما أدرك أن ما أنا فيه درب من الجنون ومع ذلك فليس لدى الشجاعة للخروج من هذه الحالة وليس لدى الشجاعة كى أسخر من نفسى في ذات الوقت.

أعتقد أنه لم يتبقى لى سوى الشفقة فأصبحت مثل الرجل الذى يشرب كى يسكن ألامه و في كل مرة يشرب فيها يكون واثقا بأنه يفعل هذا لأنه لا يستطيع العودة للواقع، فهو يصرخ و يحدث صخباً ويثور ويبذل جهدا كى ينسى حزنه، لكنه بمجرد أن يقترب الكأس من فمه لا يتذكر سوى السبب الذى يشرب من أجله.

فعندما يستيقظ في الصباح تؤله عربدته في اليوم السابق، وكذلك الدافع من وراء هذه العربدة، لأن مأساته لم تنتهى بعد، بل على العكس من ذلك فهى تزداد صعوبة ويأساً أكثر من الآن.

استيقظت في الصباح في حالة مشابهه لمواء القطط، وأثناء الليلة الأخيرة في الرحلة كنت أحلم(بأنَّا) استمرارا للغوص في خيالى اليومى، وكنت أحيا الساعات الجميلة معها على البرمرة أخرى، حينما كنا نجدف ونقوم بصيد الأسماك أصبح نومى خفيفا وغير هادىء ومتقطع لكننى أحاول اختراق المخدة برأسى، لكن سرعان ما أستطيع السيطرة على أفكارى مرة أخرى، لكنَّ الضوضاء في الخارج وكذلك الأصوات السيئة عادة ما تنتصر. كنت أسمع إشارة

الصافرة تدوِّى بدرجة جعلت النوم يفارقنى، فصوتها المنفر الحاد كان يدوِّى في أذنى من على بُعد و الآن أصبح وكأنما يدوِّى فوق رأسى.

أرانا نرقد أمام المرسى تحت الضباب اللامتناهى وعلى الرغم من أننا نتواجد بين شاطئى نهر ضيق إلا أننا لا يمكننا رؤية ضفافه وتبعد عنا ثم تظهر ملامح سفينة أخرى كبيرة خلال الضباب حاولت قراءة اسم كابيلا لكن هذه التخيلات لم تترك في نفسى ذلك الانطباع كيوم أمس، كنت ارتعد من برودة نفسى والصقيع في الجو، فحواسى فارغة من تخيلات الأمس ولم يتبقى من أحلام الليل شيئ، فهو مجرد صباح عادى جدا، فكل ما كان أمس من شاعرية ورائحة موهومة قد اختفي.

صافرة الباخرة صاحت شاكية وتجيبها البواخرالأخرى هناك في الافق بفزع محذرة من الأخطار، كما تحذر العصافير بعضها البعض من الطيور الجارحة التى تتربص بها في مكان ما، كان هذا سببا في زيادة يأسى لكنى حاولت الاحتفاظ ببعض الإرادة والمقاومة.

أعلم أن خلف حائط الضباب هذا قليل من الجبال التى تبعد عنا، فالغربة تتسع.. تبعد.. وتكبر مجهولة وقاسية. فأنا وسط حلقوم تلك الغربة، لابد أن أبدأ حياة جديدة وانتقل بنفسى إلى عالم جديد بالرغم من أن جذورى مزروعة في أرض قديمة، فكم كنت أتمنى أن تعود سفينتى مرة أخرى إلى الوطن.

كم أود التغلب على هذا الوهن الذى يؤلمنى لكنه أصبح أثناء

رحلة القطار أكثر إيلاما، أينما أهب أجد نفس الواقع البائس، فكأنما أنا ريشة تتقاذفها الرياح هكذا وهكذا، لطالما كنت صغيرا وتافها لكننى في وطنى كنت أعنى شيئا على الأقل ترس في ألة. «أنا هنا كأننى شيئ زائد لا يفتقده أحد» يستطيع أن يبقى على هامش الطريق .

وبالتدريج ارتخى جسدى واستغرقت في حالة من عدم المبالاة الشديدة وجسدى أصبح فاقداً للإرادة يتحرك مع حركة القطار، فالمناظر الطبيعية والمدن والقرى يمران من أمامى ولكن لا يثيرون في نفسى حتى شيء من الفضول،(أنَّا) لم تعد هنا بجانبى على الإطلاق، فأنا لا أفكر في الماضى ولا في المستقبل بل تركت نفسى كأسير حبس احتياطى يُنقل من محكمة إلى أخرى.

استيقظ أثناء الرحلة مرتين على أحاسيس المرة الأولى في كولونيا،حيثما كنت أتفقد الكاتدرائية مع المسافرين الآخرين.

ومن ضوضاء السكك الحديدية، ومن صافرات القاطرات التى تمزق الأذن، ومن تراب العربة، ومن ضوء الشمس الذى يعمى العيون المتعبة: أرى نفسى فجأة منتقلا إلى السماء التى تشع ضوءا خافتا حيث يتلاشى الضوء ووقتما يخشع الناس ويسيرون بحذر على أصابع أقدامهم وحيثما تنحدرموسيقى ساكنة حزينة من مكان ما غير مرئى، لا أعرف بالضبط ربما من الأسطح أو من الحوائط وخلال الأعمدة كنت ألمح آفاقا عميقة وفي نهايتها مذابح الكنيسة بمشاعلها المحترقة والتى تبث بصيصا ضئيلا دافئا من الضوء، وفي

كنيسة جانبية توجد سيدة ترتدى زياً أسوداً متخفية وشاحبة اللون ترتكز على ركبتيها وتنتحب، وأنا أسير على أطراف أصابعى مارا من أمامها وسواء أنا أو السياح الآخرون نشعر أننا جميعاً نقتحم أجواءاً مهيبة مقدسة.

أنا، ذلك الذى يدعى دائما حتى الآن أن المشاعر الدينية لا تمثل سوى حالة من النشوى في حالة الضعف الانسانى، أشعر بأننى أذوب كالشمع. أشعر بأننى أرغب أن أركع على ركبتىَّ وأصلى وفي نفس الوقت أتمنى الاحتفاظ بهذه الحالة.

ربما يقلع القطار وربما يسير العالم في طريقه ويمارس الناس أعمالهم، لكننى سأبقى هنا في هذا الاعوجاج. وكيف لى أن أفهم جيدا هؤلاء النسَّاك والرهبان والراهبات الذين سئموا الحياة واستبدلوها بالانغلاق على أنفسهم في الأديرة، والبحث عن النسيان في عزلة الصحارى، هذا النسيان ليس كاللجوء للنسيان في العمل والانخراط في دوامة الحياة، لكن الناس يجيئون ويذهبون وفي كل مرة حين يفتح الباب تدخل أصوت العالم الخارجى كهدير السيارات وصهيل الخيل من محطة القطار حتى تصل إلى هنا.

يسير أمامى رجل ممن يركبون معى ينظر في ساعته وكنت أسرع معه الخطو أيضا منشغلاً أو مهموماً لقد تأخرت، يدوِّى هدير القطار من مدينة كولونيا كحيوان مفترس هارب من قفصه، وحينما حل المساء اقتربنا من الوصول وكنت قد خرجت مجددا من حالة التخدير التى كنت قد تعودت علىها تدريجيا.

القطار كان متأخرا وكأنما أراد تعويض الوقت الذى فاته، كان هذا القطار يهدر بشكل فظيع أثناء الرحلة لدرجة أن العربة التى كنا نركب فيه كانت تقفز إلى أعلى، وكنت أريد الاستيقاظ ولكنى أعود إلى مكانى مرة أخرى. في هذه اللحظات كنت أشعرعلى الأقل كأنما قطعنى القطار الآخر على القضبان المجاورة إلى نصفين، كنت على وشك أن اتفتت قطعا صغيرة وأتساقط، هل هذا فقط مجرد إجهاد بدنى أو نقص نوم ؟

كنت أحاول تفسير هذه الحالة وأتجاوزها، لذلك فأنا لا أستطيع أن أكون كالآخرين: يحزمون أشياءهم وهم يبدون كأنما لا يشعرون بشيء محدد فهل أنا من طينة أخرى ؟ أم أننى لم أصقل جيدا ؟ ما هذا العناء..! ؟ لماذا أنا(وحدى) من دون البشر في هذا العالم أعانى عدم الاستقرار ؟ لكننى- بلا جدوى- أحاول أن أهوِّن من مشاعرى هذه، مرة أخرى أتوق إلى هذا الشوق الذى لاحدود له، والذى يشطر القلب و الحب أيضا، يالها من حاجة للحنان الذى يشعرنى بألم في كل عصب من أعصابى، لكن ليس لدى أمل في أن يأتى هذا الحب يوما ما وأنا وحدى، ولذلك أشعر الآن أننى على وشك الهلاك.

وتستمر رحلة القطار أكثر شدة والقاطرة تصفِّر على مدى الطريق لا تتوقف لحظة،عابرين من نفق إلى آخر، مارين بالجسور والمنحنيات والمحطات الصغيرة التى لا يتوقف عندها القطار، بدا لى أن القطار لايمكن إيقافه كما لو أن جبلاً مغناطيساً جذب هذه

المركبة الحديدية إليه فلم يعد ينصاع لآلة التوجيه من أثر تلك الجاذبية وكلما اقتربنا، كلما إزداد نهمه في جذبنا إليه.

وفجأة أمسكت قوة خفية بهذا القطار تماما فسقطت كل المسامير تتحرر من بدن المركبة وانفكت السفينة من الجانب الصخرى .

وفجأة وجدتنى تحت قوس من الزجاج وبدأ القطار يهدأ من ركضه مما ينذر باقتراب الوصول ودخل القطار في هدوء إلى رصيف المحطة.

كنت أشعر بأننى حلقة في سلسلة طويلة من البشر مرة أخرى التى تنتهى أيضا على ذلك الرصيف، بينما تبتلعها باريس في حلقومها.

«هل انتهيت سيدى ؟».

«نعم يا سيدتى، هل تشرب القهوة، هل تشرب كونياك ؟»

«من فضلك مدام !»

« نظرتك حزينة»

«على العكس تماما».

أجلس في المطعم الكائن بشارع كليشا عندما أنهيت تناولى لطعام العشاء، كان هذا المكان طويلاً ومخرجه يؤدى مباشرة إلى الشارع، وإلى جانب الباب توجد منضدة مستطيلة يقف خلفها صاحب

obeikandl.com

المطعم يعطى أكواباً صغيرة في أكمام العمال باستمرار، وتوجد بمحازاة الحوائط الأخرى مقاعد من الجلد وأمامها مناضد رخامية ذات أرجل حديدية يجلس حولها سائقو عربات الحنطور بأجسامهم القوية وهم يرتدون الصيديرى الأحمر يأكلون ويتحدثون بصوت عالٍ وبدون انقطاع أثناء شرب القهوة من الأكواب السمراء، واسطواناتهم الجلدية اللامعة معلقة على الترابيس أعلى رؤوسهم وكذلك أيضا ملابسهم وعلى حائط إحدى الأركان توجد حزمة أطول من السياط الأكثر رشاقة من أصحابها.

وحينما كان يُفتح الباب ويدخل سائقٌ من سائقى عربات الحنطور -ساداً لفتحة الباب كلها- تدخل معه ضوضاء الشارع كلها، إنه ضجيج المدن الكبرى الذى لا ينقطع أبداً، صياح الباعة الجائلين وأصوت ضربات حدوات الخيل على الأسفلت وكذلك فرقعة السياط والنغمات التى تصدر من أصوات الخيل العابر بالعربات. من الغريب حينما أفكر أنى أجلس هنا وأسمع كل شيء وأن كل هذا يحدث إلى جوارى ومن أمامى أنا ؟ نعم أنا الذى سافرت عبر الجو وجئت إلى هذا الركن في باريس بالصدفة البحتة وأقضى حياتى هنا.

أشعر في هذه اللحظة أننى على مايرام فأنا أستمتع بالهدوء حيث لا أحد يزعجنى ولا أحد يتحدث معى، الوجوه الغريبة للمحيط الجديد وكمٍّ اللغات الأجنبية.. كل هذا يجعلنى في حالة هادئة لدرجة أن الأفكار لم تأخذ وقتاً طويلاً كى تتجمد تماما في عقلى.

أقضى هنا من ساعتين لثلاثة ساعات أرتشف القهوةشيئاً فشيئاً، والكونياك، وأدخن سيجارة ببطيء وأقرأ الجريدة كى أقتل الوقت. لكن حينما خرجت إلى الشارع حيث يتحرك التيار الذى لا ينقطع من البشر وحيثما تسلل إلى أذنى أصوات نسائية مبتهجة وموسيقية كالألحان، وحيثما تدورعجلات عربات الحنطور واحدة تلو الأخرى في تسلسل لا يتوقف وهى تتلألأ تحت أضواء مشاعل الغاز، والأنوار الصادرة من كشَّافات السيارات كالدر في نهر جارى. ساعتها سيطرت على نفسى عاطفة الحزن التى تعود من جديد في كل يوم في نفس التوقيت وفي نفس البقعة،أنا لا أعرف أحدا كى أذهب إلىه، وليس لدى أيضا الرغبة في العودة إلى البيت حيث الوحدة، وسرعان ما أرجع هناك إلى نفس المقهى المعتاد مترجلا.

أقضى في هذا المقهى بضعة ساعات وأتصفح خلالها الجرائد وأشاهد لاعبى البلياردو وأكتب الرسائل.

أنشغل هذه المرة بكتابة رسالة إلى أخى(أنَّا) وقد كتبت بالفعل صفحات عديدة، فنحن الاثنين مررنا بحالات مختلفة وأحسسنا مشاعر كثيرة مع بعضنا البعض، فنحن نعلم جيدا كم التحولات المحدودة في شخصية كل منا. فأحدنا دخل في معترك قصة الحب وتبادلنا نحن الاثنين المعاونة في مغامراتنا، واقتسمنا المكسب والخسارة-أقصد ملاحظاتنا وخبراتنا- حتى في أدق التفاصيل كنا نبحث عن تفسير لأرواحنا، وبنينا من خلال هذا نظاماً نفسياً

للحب وللحياة بشكل عام .

أكتب له الآن كى أصف له باختصارحالتى منذا أن رحلت عنهم وربما لدى سببا آخر للكتابة.

وحينما أقرأ ما كتبت في الليلة الماضية يبدو لى كما لو أننى واضعا في اعتبارى أن خطابى هذا سيقرأه الآخرون وليس هو وحده.

لم أعتقد في حياتى أن الغربة سوف تترك في نفسى الانطباع الذى تكون لدى، لأننى تصورت الرحلة و مجيئى إلى هذه المدينة وحياتى فيها بشكل مختلف تماما، أو بالأحرى كنت أعتقد أن انطباعى سيختلف لأن كل شيء ما هو إلا نتاج لحالتنا النفسية .

إن العلاقة بالجنس الآخر كما نراها في بلدنا وبالتحديد في أوقات وقف إطلاق النار أثناء الحرب، والفترة الانتقالية في الحب حيثما لا نخضع مباشرة لتأثيرها، هى التى توجهنا من خلال ذكريات الأحداث الماضية أو الأمل في المستقبل.

ربما أتذكر ما حدث في الأيام الخوالى حينما كنا سعداء غير مهمومين وشاعرين بالأمان رغم أننا كنا نتلبس بالنظر إلى الأبراج وأن أحدنا كان يعيرالآخر كلمات لفكرة متيقظة.

والآن لا ينقصنا سوى فتاة يستطيع الرجل في مجتمعنا الاستمتاع بطبيعتها الجميلة، ثم يستغرق كلانا بعد ذلك في التفكير ونجلس صامتين ونطلق العنان لخيالنا المبهم الكئيب .

فعندما تتصرف امرأة بهذه الطريقة وتعطيك انطباعا موحيا ببعد المسافة فشتان بين هذه الحالة وتلك حين يخطبها الرجل،

لأنها ساعتها ستعير هذا الانطباع كل الذى نشاهده ونعيش فيه وستضفي علىه صبغة خاصة، وأظن -بالنسبة لى على الأقل- أنه لا يوجد قطار ولا أناس ليست لديهم علاقة بتلك المرأة التى كانت محور حياتى يوما ما، ولو تمكنت من رؤية هؤلاء الناس مرة أخرى لطفاء كانوا أم لا، يثيرون في نفسى الفرح أم الحزن وأين ما كانت عواطفي حين رأيتهم أول مرة فمن خلالهم هم أنفسهم وبرغبتهم أيضا لم تترك العلاقات الظاهرية انطباعا في نفسى إطلاقا، بل تركت أثرا في نفوسهم هم كشهود على سعادتى وهمومى، هذا هو حالى وما زال حتى الآن، و ربما يكون قد بلغ ذروته الآن ، فالأثر الذى تركته الغربة في وجدانى لم يكن وليداً لحالتى النفسية الخاصة والقدرية.

أظن أن هذا سيستهويك عندما أرويه لك بشيء من التفصيل، وبالرغم من أننا لم نتحدث عنه فسوف تعلم يقينا كيف كان شعورى عندما غادرت الوطن وربما تكون(أنّا) قد روت لك شيئا أن يحب رجل في عمرى فتاة صغيرة مثل أنّا ليس أمرا ذا أهمية في ذاته ولكننى لم أكن أعرف مسبقا كيف لهذه المشاعر أن تتبلور، ويبدو أنه لابد لعواطفي-في الوقت الذى بلغت فيه من العمر عتيا ومررت بمختلف المراحل العمرية- أن تبدأ مسارها بإقبال على كل ماهو حديث مثل رحيق الشجر الكبير الذى يثمر مرتين في غفلة من الزمن على مدى خريف واحد.

تملكتنى في الصيف الماضى من جديد مشاعر طفولية خجولة

ظننت أنى قد أحسستها حينما أحببت للمرة الأولى، فهذه الفتاة التى وددت أخذها على حجرى وحملها على ذراعى أعاملها حتى اليوم كطفل صغير وكنت ألتزم الوقار إلى جوارها كتلميذ يقف أمام مثله الأعلى للمرة الأولى.

لقد وقعت في حب هذه الفتاة كما لو كانت حبى الأول، و ظننت أنى أستطيع مقاومة هذا الحب وأننى سأتركه في الوطن مثلما تركت كل شيء، لكنها جاءت معى ورافقتنى في رحلتى وبينما أقضى الأسابيع الأولى لى هنا وقعت في أسرها كما سترى قريبا، فحاولت المقاومة لأنها جرحتنى بدرجة لا يمكن وصفها وساعد ت الغربة بانطباعاتها الجديدة أن تطوى صفحة الماضى، لكنَّ مشاعرى كانت على أهبة الاستعداد للعودة، وأبت جراح الماضى أن تندمل، فكل ميدان زرته وكل شارع جديد مشيته وكل مطعم أكلت فيه يذكرنى بهذا النضال، ولربما أجد تفسيرا لهذه الحالة التى ربما تأتى كنتاج لصراع داخلى تموج به نفسى بحيث أرى كل هذه الأماكن بوضوح أمامى فيتأثر بها وجدانى كثيرا مثلما يؤثر دبوس حاد جديد يترك بصمة قوية فوق ورقة بيضاء، في كل مرة حينما تجول بخاطرى صورة جديدة تستأثر من خلال حداثتها بانتباهى، و أشعر بأننى قد تجاوزت الماضى بشيء من الرضا.

وحين تتبدل حالتى المزاجية فجأة وعندما يتدفق الضوء من مكان آخر تنتقل هذه الصورة الجديدة إلى النهار فأكتشف في قاع البحر الصافي الذى يتلألأ ماؤه وتنعكس فيه صورة كل الأشياء من

حولى، ولا أستطيع تجاهل تلك الصورة أو إطفاءها أو حتى تزييفها لأنها ترسم ملامح حبيبتى الجميلة رقيقة الجانب بخصلة شعرها خلف أذنيها.

عندما أغادر بيتى وأهيم على وجهى في الشوارع الذى ينتهى إلى شارع عريض ممتلىء بالأشجار، أشعر رغم هذا بأننى لا أستطيع التفاعل مع الحياة من حولى حتى ولو للحظة، ففي الشارع يضع الباعة حقائب بضاعتهم على الأرصفة، وتتراص الثمار والخضروات الطازجة بين الأسوار الصخرية العالية كغثاء سيل يهدر من جبل ويتدفق بين هذه الأسوار، ويصيح البائعون من الأعماق والمشترون يتدافعون إلىهم وأغلبهم من النساء يرتدين ملابس الصباح مكشوفي الرؤوس يحملون أوشحة فوق أكتافهن، وعلى الجانب الآخر تظهر عبر نافذة المخبز كومة كبيرة من الخبز الأبيض الطويل والسميك كأحطاب شجر البتولا، وإلى جانب هذه الكومة من الخبز توجد منضدة صغيرة مستطيلة الشكل يجلس أمامها جمع من الرجال يرتدون القمصان وأمامهم مجموعة من الأكواب الصغيرة يشربون منها شراب(الإفسنتين) وهم واقفين على أقدامهم، وهناك أيضا مجموعة من التلاميذ بأزيائهم المدرسية يحملون كتبهم تحت أذرعهم وينادون ويصيحون فهم يتراهنون مع سائق عربة الشحن الكبيرة والتى تضرب خيولها بحدواتهم المتلألأة أسفلت الشارع، كان هؤلا ء التلاميذ يبذلون مجهودا في تحريك تلك الحمولة الثقيلة.

قابلنى كل صباح رجل كبيرالسن كفيف البصر مصادفة حاملا في يده علبة ومنتظرا للصدقة والعابرون ينظرون إلىه بلا مبالاة، و يقف أناس أمام بائع الكتب يتأملون الصحف الفكاهية و ينتهى هذا السور عند سوق صغير يوجد بمنتصفه تمثال و تقف على جانبه سلسلة من سيارات الأجرة بأغطيتها السوداء اللامعة ويتردد وقع حدوات الخيل ثم تدخل عربة يجرها اثنان من الخيول البيضاء عبر فتحة الشارع.

الأفسيتين : شراب مسكر

فهذه العربة في طريقها إلى المعرض، فأسرعت إلىها كى أختطف مقعدا لى وبينما كنا نتحرك للأمام كنت أشاهد عبر نافذتها وجوه باريسية تمرمن أمامى واحداً تلو الآخر. أما عن المقاهى فكانت نافذتها والمرايا المعلقة على حوائطها تعكس كل ما يدور في الشارع بما في ذلك الناس والعربات، وتلك الحوائط تكسوها الحروف المكتوبة بخط كبير، وأكشاك الجرائد الملونة، ومحطة عربات الحنطور حيث يقف حشد من الناس انتظاراً للركوب، ورجل الأمن الجاد الذى يقف على ناصية الشارع في نقطة الحراسة، وتوجد نافورة في وسط ميدان جديد مفتوح. وفجأة ظهر شارع آخر يملأه ضجيج الحافلات في الأفق التى تلوح ثم تتوارى، تجد فيه بيوتاً بسيطة ورائعة مصنوعة من الأحجار الضخمة كأنما حفرت في جبل كالمعابد ذات شرفات مزينة بالحديد، تقف هناك سيدة لا تختلف كثيرا عن هذه الأنماط ترتدى ملابس رمادية اللون ينسدل

على أكتافها وشاح، وتجلس أمامى مباشرة سيدة تنم ملامحها على أنها باريسية رشيقة متأنية مثل دمية خرجت من تحت يد صانعها للتو، وكأنما صنعت من خشب طازج وخصب، ويجلس إلى جوارها رجل يكبرها سنا ووسام الشرف معلق بعروة كسوته ويرتدى أيضا قبعة اسطوانية الشكل على رأسه. كم كانت هذه السيدة تتحرك بمهارة وهى تمر عبر الممر الضيق بمحازاة ركب الجالسون، بدت هذه السيدة كطير فلت من عشه دون أن يرتب ريشه، فقدمت لها مقعد برجوعى للخلف، فأجابتنى شاكرة بهمسات تتردد عبر شفتيها قائلة :

«بردون»

ثم خرجت إلى الشارع وصعدت إلى الرصيف وفتحت مظلة الشمس وبسطت يدها المرتدية القفاز ووضعتها تحت ذراع زوجها، هذا كل ما حدث.

كل شيء كان يبدو لى كضربة لروحى وأظن أننى سأذبل وأصبح أكثر حزنا، كانت أيامى تمر هكذا لعلة ما. والمعرض دائما ما كان يترك أثرا كبيرا طالما كنت أرى رواق (تروكاديرو).

يعلو برج إيفيل وسط الميدان كما يرتفع نبات التنوب في صحراء بحَّدب في القمة، وقباب فوق مبانى المعرض المذهبة تتلألأ في ضوء الشمس مكللة بالتماثيل كأنما تتطلع للسمو، وبشكل أوتوماتيكى ارتفع ضغط الدم في عروقى عندما وطأت قدماى الجسرالذى يعلو نهرالسين، والقوارب البخارية تسرى وهى ممتلئة بالناس تشبه

طائر السنونو. وبينما أنا أسفل برج إيفيل، هذا العملاق الحديدى وبين أعمدته لم أكن أفكر في أى شيء تلك اللحظة سوى أن أشاهد وأنبهر مما أرى، وأثناء تجولى في شوارع وممرات هذه المدينة المبهرة أذهب من قصر لقصر، هذه القصور التى تزخر بالزخارف التى تمثل قطعة فنية كاملة الأركان وكذلك بواباتها وتماثيلها وحوائط قصورها التى تمثل لوحات فنية وحجراتها الممتلئة بكل ما هو نفيس كأنما جُمعت من شتى بقاع الأرض. هكذا تحررت تماما من ذاتيتى وصرت لا أعرف هل أنا ذلك الذى أتجول وتنقله كل خطوة إلى مكان جديد من العالم ؟

أو عندما أجد نفسى في قاعة الماكينات التى تشعر أسفل غطاءها الزجاجى كما لو أنك في ورشة حداد، أجد نفسى هنا حيثما ترك الزمان أثر كدح أيدى الصناع، وحيثما صمدت كل المطارق، وحيثما انتشر البخار والغاز والكهرباء، كنت مرتبكاً ومخدراً تماما من هذا الصخب وكأنما اخترقت الكهرباء كل وريد من أوردتى، وانتابت جسدى رعشة أحسست فيها أن شرراً كهربيا يسرى في كل جهازى العصبى. وعندما بدأت النافورات المضيئة ليلا عزف سيمفونية بألوانها أصبح برج إيفيل كله مثل عمود نار موحد حينها تخللنى هذا المناخ الصاخب السائد في أرجاء المكان وبدأ ت تتملكنى هذه الحالة من الابتهاج والتى انعكست على جميع الموجودين أمام هيكل القرابين الذى يرسل ضياءه برسالة مضمونها يعاند الألهة ويمجد قوة البشر، ثم نازعتنى رغبة

في الجلوس وحدى في ركن بعيد في إحدى المقاهى على منضدة صغيرة ومنعزلة. فالصخب الذى يملأ وسط ميدان المعارض صوت ينخفض والضوء يتسرب كضباب يخيم فوق الأشجار، كل شيء هنا مسلط عليه الضوء، حتى فروع الأشجار المزدانة بالمصابيح الدائرية الحمراء تبدو كحبات الكريز الكبيرة، ومن حين لآخر توقد المشاعل البنغالية في أوعيتها والتى سرعان ما تلقى بأنوارها الصفراء لتعبر من فوق أوراق النبات وعبر حوائط السرادقات ومن بين المتنزهين في الميادين المغطاة بالحشائش، هذه الأجواء التى تصطبغ بصبغة قومية تذكرنى بالأجواء الاحتفالية الكرنفالية في وطنى فنلندا.

ثم داهمتنى من جديد حالة الكآبة وسوء المزاج وعادت عواطفي كسابق عهدها، فبعد أن أوشكت على الاندماج في حالة الصخب في تلك الميادين، سئمت فجأة كل ما عايشت ورأيت ولم يعد ذلك شيء يمثل أهمية بالنسبة لى. ثم بدا يتسلل إلى فكرى أن هذا البرج يمثل صورة من الشعوذة شاهدا على طموح البشر، وهذه المعالم لا تمثل سوى مجرد لعب لأطفال كبار، فكل هذه الآلاف من البشر يناضلون من أجل الفوز بمقعد حول النافورات المضيئة، مجرد مهرجون أو مجانين وأتأمل حماسهم هذا مثلما يقيم الملتزمون دينيا كل أنماط الترفيه الغربى. أصبح كل شيء مؤقتا عابرا أى أنه بعد مرور بضعة شهور لن يتبقى أى شيء مما رأيت وعايشت سوى مجموعة من الأحجار. أصبح حاضرى مجرد هراء وأنا على يقين

من أن تقييمى للأمور سيكون مختلفا تماما لو كانت(أنّا) برفقتى وأصطحبتها في كل مكان أذهب إلى وتمكنت من مشاهدة كل هذه المعالم بصحبتها. ساعتها فقط سأشعر بالسعادة، والانبهار، والحماسة.

ذهبت ذات مرة إلى أحد المعارض التابعة لمؤسسة مجرية حيث عُزفت أوركسترا شترايش وهناك يتم إهداء النبيذ، أحسست الجمر، وقد أحسست بالجمر في هذه الموسيقى وشمس الجنوب التى تفوح منها رائحة الوطن، وتذوقت طعم العنب الخالص في قطرات النبيذ.

يرتدى الموسيقيون أزياءاً فلكلورية وأعينهم سوداء يتصفون بالبدانة وهم ذوى شوارب تتجه أطرافها لأعلى، و يقف معهم قائد الأوركسترا وهم يعزفون الموسيقى و تتعالى النغمات وتخبو، ثم ينحنى هذا القائد بجسده للوراء والدر يتلألأ فوق أزياءه الرسمية وعيناه تلمعان في ضوء المصابيح الكهربية، ينظر قائد الاوركسترا لسيدة جالسة بجواره نظرة عابثة بينما يلقى الحاضرون الزهورعلى المنصة وهم يتابعون العزف مستغرقين في مشاعر انعكست للصدى المصاحب لموسيقى الكمان، تمتد الأيدى هنا وهناك وحركة الأقدام والرؤوس تنسجم أثناء الرقص مع الموسيقى، فقد بدأتُ البهجة والحماسة تدخلان قلبى، وفجأة صمتت آلة الكمان وانقطعت الموسيقى وتردد صوت رنين العملة المعدنية في نهاية قاعة الحفل التى ألقى بها النادل في يد أحد الحاضرون.

ظل قوس قائد الاوركسترا

أثناء العزف في الداخل ورأسه مرتفعة وبلغت الأيدى الأذان، وعندما ترك يده تنزل علىها دون أن يراه أحد تغيرت ساعتها أنغام الكمان فأصبح اللحن حزينا في البداية ثم بدأ ينوح وبدا صوته كالبكاء مثل وتر منسى عاد من الذكريات مرة أخرى، فقد صارت قسماته حاد ويجول بنظراته عبر رؤوس الحاضرين كأنما تسرى في خط وهمى لتصل إلى المصباح المعلق فوق الباب، الذى يبدو محلقا عابرا أتى من البراح الواسع إلى الأفق البعيد، وتتوارى خلفه شمس في ليل وطنه بعيدا بعيدا جدا، وكذلك أفق وطنى الكئيب ورياح الشمال التى هدأت، والأمواج التى تدورمعاندة جانب القارب، والشراع يتدلى رخوا و(أنّا) تجلس في المقدمة تدير ظهرها لى وتغنى بصوت منخفض، لقد سمعتها هنا بالأمس! لا أريد الحديث عن التغيرالمتكرر دائما لحالتى المزاجية. إذا رأى المرء الموج فسيعرف ما سيأتى بعده، لسوف تعكس زرقة السماء الشديدة وقريبا سوف تتوج خطوطها من الرغوة البيضاء التى سوف تتضخم لبعض الوقت، ثم تهوى عندما تهدأ الريح وتستسلم للهدوء في النهاية.

ولذلك أعتقد أن موجات قلبى هى الأخرى ستهدأ قريبا.

واصلت عملى في المكتبة بانتظام بحيث لم يتبقىَ لى وقت لمراقبة نفسى مثلما كنت أفعل في بداية الرحلة ، فأجواء سماء مدينة باريس تركت أثرا عميقا في نفسى وخلقت بداخلى أحلاماً

وأشواقاً جديدة، فعندما أتجول في المساء في الشارع الكبير الممتلىء بالأشجار حيث يتدفق الناس مبتهجين غير مبالين ومتهورين أيضا كأنما الحياة كلها مجرد لعبة، وهكذا تولدّت لدى رغبة في مشاركة الأخرين فيما يفعلون. فما المانع إذا من أن أخذ إحدى فتيات الليل تحت ذراعى، تلك الفراشات اللائى تدثرن بالقطيفة والحرير ويومئن برؤوسهن ببراءة وسخرية من كل الأحكام المسبقة في هذا العالم.

لا يوجد كائنا من كان يجعلنى أنسى الماضى وأداوى جراحه، ألا يجب تعكير صفو المياه ماذا إذا حلت هذه الجراح محلها. ولماذا لا أترك نفسى تُنتزع من جديد في نفس الدوامة؟ ولماذا لا أجلس في إحدى المقاهى حيثما تختلط قبعات الرجال الإسطوانية وفساتين السيدات المبهجة.

هكذا أفكر أنا، لكن على الرغم من هذا فأنا هنا وسأظل كما كنت ذلك الشخص الذى كان في السابق، ولن أحيد عن هذا أبدا ولو بالقدر القليل، بل سأسير دائما في نفس الشوارع فقط في طريقى للبيت وكم أسعد بفعل هذا. وعندما وضعت رسالتى في الغلاف شعرت بأن ما قلته عن النهاية المتوقعة لقصة حبى أمرا يجافي الحقيقة. وبينما تنزلق الريشة فوق الورق تداخلت أفكارى مع تلك الظنون، وظننت أنها حالة مصادفة يمكن أن تتبدل بين لحظة وأخرى، وسرعان ما تملكنى في نفس اللحظة شعور بالأمل من أن خطابى هذا سيبوح بما أردت إخفاءه، فعندما يقرأ أخاها هذه

الرسالة سيقول لأمه بلا شك :

«ألا ترين أنه لم يزل أسيرا وما زال يحب (أنّا)؟»

ولكن ما الذى ستقوله هى نفسها ؟ وبالطبع سوف يطلب منها أخاها أن تقرأ الخطاب، ولكن ما هو الإنطباع الذى سيتركه الخطاب علىها حين تقرأه ؟

عندما تأملت في كل شيء بزغ الأمل من جديد في داخلى .

كانت الحلول تتوهج أمامى واحدا تلو الآخر في الأفق وتبدو لى مثل شعاع الشمس المشرقة، ثم تخيلت أن رسالتى يمكن أن تصلها، وحاولت أن أقدم كل ما يمكن . وعندما تأملت الموقف جيدا كان لزاما على أن أصل إلى نتيجة أن(أنّا) ما زالت لا تعرف عمق مشاعرى جيدا، فالأمر برمته كان مفاجئا لها فأن لم أتحدث معها لا بجدية ولا بغيرها. وربما بدأت تتأمل ذلك بعد رحيلى من خلال استرجاع مشاعرى الدافئة تجاهها.

وبرحمة الحب لم أدع مجالا حتى لشفقتها علىّ ولم أستطع كتم هذا الشعور، ربما كان هذا تأثير أمها وأخيها. وبإحساس فريد تأملت الخطاب الذى كان أمامى فوق المنضدة، فالغلاف من أفخم أنواع الورق الفرنسى. شعرت بأنه حى مثل فراشة شاحبة اللون مخملية الملس تتصلب مكانها ولا تتحرك فوق ورقة نبات فلا تهتز مرة واحدة وحتى عندما تقترب منها تطير.

لم يطاوعنى قلبى أن أضع الخطاب في جيبى خشية أن ينكمش فتركته أمامى حتى أنهيت شراب الجعة ولفافة التبغ. كانت

أصوات كرات البلياردو تحدث صوت قرع في الحجرة المجاورة وعاملة الخزينة كانت تقعقع بالأوانى الفضية خلف البوفيه، ومصابيح الغاز تتوهج على مرآة الحائط وعلى الأبواب الزجاجية والمتنزهون يتدفقون في الشارع بلا توقف وكذلك العربات بخيلها. خرجت ممسكا الخطاب في يدى بحذر وعندما سمعت صوت سقوطه على قاع صندوق البريد أصابتنى قشعريرة في جسدى، ثم سرت على الرصيف في طريقى عائدا إلى البيت.

كانت كل المقاهى تتلألأ بأضوائها المبهجة وصدى الحفلات الموسيقية والغناءيتردد في المطاعم وأنا ألمح من خلال الأبواب المفتوحة والدخان الأزرق في الخلفية النساء الراقصات اللائى يرتدين أزياءاً مصنوعة من أقمشة قطنية شفافة، أسير متعجلا وأرى أمامى بالكاد كى أتجنب في كل خطوة أخطوها النساء اللائى أقابلهن صدفة.

«سيدى هل ترقص؟»

كنت أتحرر بشدة من أكمام معطفي، ثم دخلت إلى الشارع الذى أقيم فيه . كان هناك سكون وصمت والمحال مغلقة فيما عدا بائعى ثمرة الكستناء عند ناصية الشارع وهم يشونها فتحدث صوت خشخشة في الصينية ويتجول أمامى حيوان ابن أوى يلملم البقايا من على الأرض، هذه البقايا التى ألقى بها من كانوا هناك.

كنت أدق الجرس وأنادى البواب وأصعد إلى حجرتى الصغيرة في الطابق السادس، ثم أغلق نافذتى محاولا اختراق الظلام بنظراتى

وأرى باريس كلها أمامى هناك تحت جنح الليل.

إننى لا أستطيع الآن أن أراها ولكننى استطيع ذلك بواسطة الضوء الكهربائى في الشارع العريض ومن خلال الضوء المتلألأ على مسافة غير مماثلة استطيع أن أشعر حجم المدينة كلها. فهنا لا يسمع صوت لكن أصداء أصوات لا تنقطع و أصوات الجائلين ترددت في وسط المدينة مثل الأصداء القادمة من شلال بعيد يخترق دويه سكون الليل عمق الغابات إلى القرى المتناثرة فوق الجبال، يتردد صوت همسات وفرقعة وصياح كأنه أنين المعذبين بألالام لا تنتهى. أسمع هذه الأصوات كل ليلة ولا أستطيع تحديد مصدرها، وربما أستطيع التعرف على هذه الأصوات، فهذا هو القطار الذى يصفرعند وصوله للمحطة التالية، وها هى أصوات الناس بغنائهم.

وظللت أرقد مستيقظا إلى ما بعد منتصف الليل ناسيا من أنا محاولا إيهام نفسى بأننى في وطنى في بيت والدى في حجرة يزينها الجملون فوق ربوة عالية، هناك حيث قضيت الليالي مع كتبى في الماضى أذاكر دروسى من أجل اجتياز الاختبارات وخيالاتى في البداية كانت مجرد أوهام وآمال مستقبلية، ثم أحببت وصدقت نفسى حينها، كانت نافذة حجرتى مثل هذه تطل على منظر رحيب في إحدى الغابات حيثما رأيت دائما على مرمى البصر ومضات النيران فوق قمم الجبال، وفي الليل كنت أخلد للنوم وقت أن تلاشت فيه آخر خطوات العابرين، لكن تلك الأرض القاحلة

لم تكف عن محاولة العودة للحياة، فهى تستعيد الحياة ليلا وتبعث دوما نفس الحفلات الصامتة ونفس الأصوات الليلية، ثم خلعت ملابسى وخلدت للنوم وتمنيت أن أرى في أحلامى أن هذا الظلام الدامس أسفل نافذتى تحول إلى غابة وتمنيت أيضا أن تكون أرض هذه الغابة القفرة هى التى تهمهم.

بين تلكما الساعتين بدا لى وكأنه اختفي، فأنا الآن ذلك الذى كان أنذاك مبتغى لطموحاتى أتلمس الأمل في نفسى وكأنى بصدد حلم بالمستقبل والوطن والسعادة. لم أعد أتصور أننى أخاف مثلما كنت منذ وقت قليل، أننى مدان بهذا باستمرار أن أحيا وحيداً دون أصدقاء.

قضيت أسابيعا طويلة وأنا في هذه الحالة الوجدانية الهادئة. فقد حدث شيء جديد في حياتى أريد أن أحتفظ به -أتمنى هذا- أؤمن أن رسالتى سوف تترك أثرا. وبينما أنتظر الرد الذى لم أتلقاه بعد وأشعر أننى على وشك السعادة، أعلم أن رسالتى مازالت في الطريق وربما هى آخر محاولة وأنه لم يعد ممكنا بعد الآن فعل شيئٍ آخر. واستغرقت في الشعور بالأمان المستسلم للقدر.أما عملى الذى أخذه على محمل الجد تقدم بسرعة إلى الأمام حيث كنت أقضى طوال اليوم في المكتبة العامة، بهذا السكون الذى يسودها كالصمت المقدس للمعابد والضياء المتدفق من السقف وما شابه من الدفء الحانى والمثقفون الجادون بقسماتهم المتأملة وجباههم المتشققة من التفكير وشعرهم الرمادى كل هذا دعانى للشعور

بالأمان وهدوء نفسى وتلاشت حالة اليأس، فليأتى الأمل كما يريد، فلابد أن أجده في القدر، ستكون حياتى في المستقبل رتيبة جدا وربما دون سعادة ولكن أيضا دون كدر وأشعر الأن كأننى هبطتُ من قمة إشراق في حياتى. على أية حال فلم يكن ذلك أملا منطفأ منقطعا غرس بى هذه الحالة من الهدوء، لأنه كلما مر الوقت منذ إرسالى للخطاب، كلما أصبحتُ أكثر اضطرابا وانفعالا، ولكن بعد مرور حوالى إسبوعين دون وصول أى رد فقد اعتبرت الأمر منتهيا. فلا استطيع الذهاب بانتظام للمكتبة ولا أستطيع البعد عن مسكنى إلا بعد انتهاء ساعى البريد من جولته في تمام الساعة الثالثة وأنا على استعداد لو تحقق ما أنتظره سوف أترك كل شيء كما هو وأعود خلال الرياح والمطر والوحل بسرعة بالقدر الذى أستطيع إلى وطنى.

ولوأنى أتيت سيقف البواب كالعادة أمام الباب ويتأمل الحياة في الشارع تضييعا للوقت.

أحاول من بعيد قراءة ما في عينيها يعطينى إشارة على حبها لى، ولو كان هذا صحيحا فلابد ألا تذهب إلى حجرتها بمجرد رؤيتها لى، وربما لا تفكر في هذا أصلا وربما تحمل رسالة لى. سأقول لها بصوت عزب :

«نهارك سعيد»

وستجيبنى بنفس العذوبة. سأتسلل أمامها إلى الباب ولكنها لن تتبعنى وسأصعد درجتين أو ثلاثة من السلم ولا أصعد أكثر من

ذلك، يجب أن أتحلى بالقناعة، وعلى ذلك لن يوجد شيئ أفعله في حجرتى فأنا فقدت اليوم كله لابد أن أسألها .

«لا شيء يا سيدى لا شيء»

أتلقى كل يوم نفس الرد ونفس الكلمة«لا شيء»، هذه الكلمة التى تمزق قلبى المرتجف والتى لا تشعر هى كم تؤلمنى.

سيدة عجوز خيرية ودودة وليطفة، ورغم هذا كنت أشك في صدقها أو أنها تخدعنى ومن يدرى لو أنها ردت خطابى عمدا؟ وربما تقصد أننى أعطيتها بقشيشاً قليلا ولذلك لم تفعل شيئا، وأحيانا أضع في يدها قطعة بخمس فرنكات، ولكن رغم ذلك لم أسمع شيئا عن الخطاب في كل مرة نفس الإجابة :

«لا شيء يا سيدى لا شيء»

وذات يوم جئت لمنزلى بعد الإفطار فاقدا الأمل في أنتظار الخطاب ولم أعد أسأل بعد ذلك عنه فكنت أنوى أن أصعد السلم عندما نادانى البواب فجأة وقال :

«لك رسالة يا سيدى»

أهى من(أنّا)؟ ثم تعثرت عندما رأيت المكتوب، هل من الممكن أن يحدث هذا ؟ ماذا يعنى هذا ؟ وأخذت الأفكار تجول برأسى حتى أننى صعدت للدور السادس ببضعة قفزات فأصبحت ألهث والدنيا تتأرجح أمام عينى ولم أستطع وضع المفتاح في الكالون، وعندما فتحت الغلاف واختطفت قطعة من الخطاب متعجلا اكتشفت أن يد أخيها هى التى سطرت حروفه وعندما فحصته

جيدا أدركت أنه خط الأم ولم أستطع تمالك نفسى كى أقرأ الخطاب و تمنيت لو لم يجيء هذا حتى الآن لأننى خشيت أن يفقدنى صوابى تماما، فالأمل الغير مؤكد والمهزوز أفضل من الموؤود على أية حال. أما الآن فبعد أن تلقيت الخطاب مرة واحدة أستطيع أن أؤجل القراءة إلى الغد وحتى إشعار أخر.

ولكن كيف وصل خط الأم للغلاف ؟ ربما لأن الأخ وكعادته نسى إيصال الخطاب حيث استيقظ خاملاً وقامت أمه بإرساله إلى البوستة وهذا يفسر وجود خط الأم على الغلاف وهو يشبه خط يد إبنتها كثيرا. والأخ ينطق بأمل لن أسيء الظن به لأنه أظهر الخطاب لأنّا وأمها، فالأم أشفقت على ولكن أنّا بعد أن قرأته وضعته دون أن تقول كلمة واحدة، ومن قتها لم نتحدث عنه مرة أخرى.

«أنت تريد أن تعرف بالتأكيد أى انطباع تركه هذا الخطاب على (أنّا)؟ سأخبرك به عندما أعرفه أنا نفسى. وأعتقد أنه في جميع الأحوال أنك لم تخسر شيئا لم تربحه. وبالمناسبة فالرجل لا يستطيع أن يتذاكى من السيدات ولكى أكون أمينا أريد أن أقول لك فقط أن(أنّا) تحب شخصا ما، وهو طالب صبى يافع قد تعارفا على بعضهم البعض أثناء مباريات كرة القدم التى يمارسها الطلاب و

رافقها أيضا من المسرح إلى البيت فكانا يتدربان ويرقصان رقصات بأزياءٍ شعبية وفي الليالى المقمرة كان يغنيها وهى شاعرة بالراحة من لمسه إياها، ولكنى لا أستطيع الحديث عن مدى عمق مشاعرها

وربما لا أستطيع أن أتبنى وجهة نظرك ولكنى مثلما قلت أننى أتعجب بالفعل من أنك أخذت حبك(لأنّا) بهذه الجدية. وربما أستطيع فهم مشاعرك هذه، إنه هو الشوق وهذا الفراغ الصعب في هذه السن الذى يستحيل تحمله، فتلك المشاعر تسيطر علينا وبحث عن الحب والعبودية وكأنهما هما السبيل الوحيد للحياة وكلما يشعر المرء أن الوقت ينفلت من بين يديه، كلما أصبح نهماً و أكثر حرصا على ذلك، ولكن بالرغم من(أنّا) فتاة بهية -ربما أفضل من عرفتهم- ولكنها ليست الوحيدة من بنات حواء، وأظن أنها سوف ينتهى أمرها بالنسبة لك حينما لا تستطيع الحصول علىها. فنظرتك للحب العذرى في كبر السن كأنما هو الحب الأول، فالتشابه بينهما يكمن في اعتقاد المرء بأنه في كل مرة يحب فيها يتصور أنها المرة الأخيرة وهذا يجافي الحقيقة دائما.

وذات يوم جميل ستقابل فتاة عذبة بل ربما أكثر عذوبة من(أنّا). فرجال في عمرنا يجب ألا يتخلوا عن أحلامهم وعندما نفعل هذا فسوف نجد نساءاً كثر يصلحن لنا، أما فيما يخصنى أنا شخصيا هكذا أنوى أن أرسو على ميناء الحياة الأسرية، هل تصدق أننى عقدت خطبتى منذ بضعة أيام، تدَّعى خطيبتى (هيلمى) وهى إبنة تاجر من مدينة(اولدابورج) فهى ليست متحررة وليست كذلك

أيضا على قدر من المعرفة فهى قوية البنيان، نضرة ومتوهجة وعملية أيضا، فهى لا تقوم بأى من الدراسات التكميلية ولكنها مستغرقة في العمل اليدوى حيث جاءت إلى هنا كى تؤسس مدرسة لتعليم الطبخ، فالتقتط عينى الثاقبة جدائل شعرها الطويلة الشقراء أثناء مبارايات كرة القدم للطلاب وصرت أتخيلها ورقصت معها رقصة فرنسية، وكما تعرف فأنا أستمتع بشاربى الرفيع ومظهرى البسيط والمختال. فقد اختارتنى من دون كل الصبيان اليافعين لأن لديها تفكيرعاقل في أن تحبنى وقد عرفت هذا عن طريق(أنّا) التى أقامت معها علاقة صداقة مفاجئة.

دعيت إلينا(هيلمى) وقد غنت قليلا ثم رافقتها وأوصلتها إلى بيتها، وهكذا إلى كل هذه الأشياء ، وعلى أية حال يمكننى اختصار كل هذه التفاصيل في كلمة واحدة لأنه ليس بها شيئ جديد وقد عاشناها آلالاف المرات، لذلك فهذا يكفي.

من الممكن أن يحدث خطبة وربما لا يحدث شيئ على الإطلاق، ومن جهتى ليس هناك حديث عما أفهمه أنا عن الحب فهذه هى حكايتها، أنت تعرف هذا جيدا ولكن من أين لنا ياعزيزى أن نجد سمات المرأة الكبيرة والعميقة التى نعتقد أنها وحدها ترضينا وتفهمنا؟ ولو أننى اشتقت ذات مرة إلى مجتمع راقٍ وإلى ما يسمى بالروحانية لوجدتنا نبحث عنهما في دوائر الأصدقاء أثناء تناول كأس من شراب(الجروج) وتبادلنا لوجهات النظر، ثم ألجأ بعد ذلك إلى ملاذى الآمن حيث ينسجم كل شيء في نظام محكم وأينما

تحيط بى الراحة النفسية و الحنان.

أما فيما تبقى فأنا مقتنع تماما أنها ليست لديها شكوى. سأكون أبا جيدا لأطفالك -أشتاق للأطفال- وسأكون زوجا صالحا. فليس هذا أمرا صعبا.

لقد مررت مثلك بكل أنماط وتقلبات الحياة العاطفية وأعتقد أننى سأكتفي الأن بلحن بسيط يملأ فراغ .

أتوق إلى الهدوء الذى يستعصى على الاختراق-هدوء يقوى الأعصاب- مثل اوبلوموف نعم بالتأكيد هو اوبلوموف. لقد سرت في الدرب وأنصحك بسيره أيضا، فلتذهب كل همومك إلى الجحيم، ليس هناك ضرورة للمغامرة بحياتك كلها وتحياها كفارس حزين، لو كنت مكانك لتركت نفسى للتيار لأنك مازلت على البر فخذ قاربك وانطلق مع التيار، ولو أنك لم توجه الدفة بدقة -الأمر الذى لا نخافه في هذا العمر- ستنزلق بالتدريج لتحرك المياه الراكدة في حياتك وستجدنى على استعداد لمساعدتك في أخذ قاربك إلى مرسى حياة زوجية تبنى على التفاهم وليس الحب العذرى. ولو أن(أنّا) لم تستجب لك وتبادلك الحب -مع أننى لا أؤكد ذلك- كلما خسرت هى أكثر. على أية حال أحاول فعل ما بوسعى ويبدو أن أمى لديها نفس النية أيضا، ربما يُترك ترتيب كل شيء طبقاً لأمنياتك ولو لم يحدث هذا فكن على يقين أننى لن أتوانى في البحث عن زوجة صالحة لك .

فهذا الخطاب ليس عظيما ولكنه يتسم بالمنطق من وجهتين، فمن

ناحية أسدى إلىَّ معروفا وأنا لا أهون من أفكار صديقى العزيز وأراءه عن الزواج، بل أعتقد أنه أعطانى بصيصا من الأمل ومن ناحية أخرى أسعد أيضا لأن مسألة حبى(لأنّا) لم تحسم نهائيا بعد وهذا هو الأمل الذى أتحدث عنه. ثم أقبلت على عملى بعد ذلك بحماس متجدد وأعيش مثل راهب وكأننى لم أستمع لتوجيهات صديقى بضرورة الدخول في معترك الحياة. أريد الآن أن أكون أكثر إخلاصا لمثلى الأعلى وأريد أن أحقق مبادئى.

إنها الليلة المقدسة والساعة تشير إلى الخامسة وكتل السحاب الضخمة تتحرك في الغرب والشمال و بقيت الدوائر الواضحة في السماء الصافية هناك في الأفق التى سرعان ماتنتشر وتغطى السماء كلها. شمس الظهيرة تشرق على باريس وتدخل حجرتى، ضيائها يميل للصفرة مصحوبا بالبرودة وظل النافذة على الحائط يذكرنى بوطنى بفنلندا وبليلة عيد الميلاد هناك بعيدا عندما كنت أنظر من نافذة المزخرفة بزخارف هرمية الشكل على الطبيعة المغطاة بالثلج متأملا حيثما يسقط ضوء الشمس خلف الغابة المتحجرة المظلمة، أتذكر الخطوات المترددة وأتذكر صوت الهمسات خلف الباب، همسات مليئة بالأسرار، وتمسك يد بالباب ويدخل

إلى الحجرة جمع من الأخوة والأخوات، جاءوا لكى يقضو ليلتهم عندى، فهم قضوا هذه الليلة الطويلة في انتظار شجرة الكريسماس حتى الفجر، قضينا هذه الليلة في لعب الإختفاء والبقرة العمياء، وكنا نزحف أسفل وفوق كل النُضُد والأسرة، مرت عدة ساعات حتى فتح الباب المؤدى للقاعة الكبيرة، و لم أكن أعرف بماذا أبدأ، لقد تعبت الألعاب منا فمن الأمام لا أستطيع فعل شيء مرة أخرى وبينما تتدلى أيدينا مرتخية كنا نتنهد في العزلة التى تقاسمناها فيما بيننا، و لم أستطع حينها حتى تجفيف قطرات العرق التى غطت جبينى وتلك القطرات التى تساقطت من أنفي.

خطر ببالى حينها أن الأخ الأكبر يجلس في تلك الحجرة الصغيرة وهو الآن يمتلك لكل عناء نهاية، ربما يصبح مرحا وهو يفهم جيدا كيف يقضى وقته ولكن فقط حين يريد، ألقى بنفسه فوق السرير وسرعان ما يتسلل إليه إخوته يحيطون بجانب سريره وهو يحكى الحكايات، كنا نستمع إلىها بأنفاس محتبسة والدخان الأزرق يخرج من الحجرة، وكنت ألاحظ كيف كانت صورة النافذة تختفي من فوق السرير وكيف ينبلج الصبح وكيف يرقد فوق المنضدة بحيث يصعب تحديد ما هو موجودٌ فوقها وحيثما توجد أنوف وأفواه وعيون الآخرين، كان البيب يصدر من قت لأخر شرراً التبغ المتوهج«إنه يحكى أكثر و أكثر» وبعد ذلك ؟ ماذا حدث بعد ذلك؟ لم أعد أفكر في اعيد الميلاد وشجرته وإذا بى فجأة أسمع صوت فتح الباب وصوت أخواتى الكبريات اللائى

يصعدن السلم وهن يقولن :

«تعالوا الأن يا أولاد»

وفجأة اكتظ السرير بالرؤوس والأقدام و شذرات التبغ المتوهجة تتساقط من البيب على الأرض، وانقلب أحد الكراسى وظل الباب مفتوحا وقبل أن ينغلق الباب من تلقاء نفسه كان شخصا آخر يصعد السلم ويغلق الباب السفلى، حتى هذه الأوقات خلت ومضت فوالدايا توفيا وتشتت إخوتى في أنحاء العالم، وأنا أفكر ترى من يسكن تلك الحجرة الصغيرة الآن! ياله من شعور مكدر لمشاعر العزله لقد عاد الكريسماس من جديد وليس جوارى شخص أحتفل معه بهذه المناسبة، ليس سوى هذه المدينة اللامتناهية بملايين البشر الذين لا أعرفهم ولا يعرفوننى، ومع ذلك فسأتنزه وحدى هذه الليلة، سأرتدى ملابسى ببطء وفي نفس الوقت أنظر من النافذة وأحاول استحضار أجواء هذا الحدث من الماضى، سأرتدى قميصا نظيفا وسأرتدى ياقات القميص المكوية وكذلك الأساور وسأربط رابطة العنق بعناية شديدة وسأنزع القبعة الإسطوانية التى قمت بتمشيطها بفرشاة ناعمة وعصا المشى بأزرارها الفضية وأنا في كامل زينتى، الهواء نقى وبارد قليلا ثم ذهبت مباشرة إلى الشارع الكبير فالشوارع تكتظ بحشود من البشر أكثر من العادة وخطوات السيدات وحركاتهن تبدو لى أكثر ليونة من المعتاد سير الرجال يسمع صوته كصدى سيل جارف في الطقس الحار.

وسياط سائقى عربات الحنطور تقرع في بهجة كأنما هى وسيلة

للترفيه لا من أدوات عملهم. والعربات الصغيرة الخفيفة وضربات حدوات الخيل تصهر أسفلت الشوارع مثل مطرقة فوق المسامير بينما العربات الكبيرة التى تعلو عن المنازل و ربما تشبه خيولها الفيلة تحدث ضوضاءاً يذكرنى بالآلات المدوية للمطارق البخارية وتوحدت كل هذه الضوضاء لتكون ضوضاءاً واحدة تتصاعد الحدوات من خلال تصاعد صافرات سائقى سيارات الأجرة تستمد حياة جديدة من قرع ضرب السياط، تطور هذا الضجيج إلى دوى عظيم يصعد من حوائط المنازل إلى السماء.وأحيانا ما يعوق هذه الضوضاء عائقٌ، لقد سد الطريق وها هو النهر يجذب إليه النفس والصوت عبر ضفتيه، ثم ينحسر والشوارع المكلومة تثور من العربات المحاصرة بحدوات الخيل والقبعات السمراء تعاود الارتباط من جديد بسرعة متزايدة ودوى متنامى.

أما في شارع الممتلىء بالأشجار وحيثما فشلت أنا اختفي صوت محركات السيارات، فالأصحاب يتدحرجون فوق الأرض المغطاة بالخشب بلا صوت. والدوى الصادر من ضربات حدوات الخيل العميقة ترن كما لو أن الخيل ارتدى جوارب مصنوعة من الصوف فوق تلك الحدوات، ورغم هذا الصمت فالشارع يسوده الاندفاع المحموم.

يزداد لمعان الخيوط الحريرية في الضوء المتزايد وهجه من خلال الكابل الحرارى والأسواق الكبيرة ممتلئة من أسفل وحتى السقف بالألعاب والكتب، والأوراق تتسرب من محال بيع الكتب إلى

رصيف الشارع مثل الحمم البركانية، وفي نوافذ المبانى الشفافة تتلألأ الياقات وأدوات الغسل مثل الثلج الأبيض الذى سقط لتوه، فكل مكان يكتظ بالمشترين، تسير أمامى إحدى الأمهات ومعها إبنتيها الصغيرتين وأنا أتبعهم من باب لباب ومن نافذة لأخرى فأتوقف حين يتوقفون ليتفقدوا الأماكن فالأم تبدو مجبرة على شراء ما تريده بناتها، وأخيرا ذهب الثلاثة معا محملين بالعبوات عبر أحد الأبواب الذى يبدو أنه يؤدى لمنزلهم وصعدوا السلم وكنت أسمع دوى ضحكات الأطفال المبتهجة بينما كنت واقفا في الخارج محتميا بالباب، أضيئت الكرات الكهربية في وسط الشارع و مصابيح الغاز على جانبى تتوهجا وتضيئا ضوء خافت، لكن آخر شعاع في ذلك اليوم ذكرنى بالعيون التى كفت ولم تعد تستطيع أن ترى بوضوح، ذهبت إلى مقهىً تزدان نوافذه بالفسيفساء كما لوأننى أقف في كنيسة بوطنى. وأرى هناك مدفأة في وسط الحجرة تنشر دفئا مريحا، والنادل يقوم بعمله متعجلا ثم أرشدنى إلى مقعد مريح فوق أريكة عند النافذة وأحضر لى الجريدة المسائية المطبوعة لتوها، ثم طلبت منه أن يحضرلى شراب الأفسنتين فهذا هو شراب النسيان والخيال اللامحدودة، حيث يمتلك سلطة إزالة الحجب من أمام أعيننا. بدأ اللهيب الناتج عن المصابيح الكهربية في الخارج ينتصر على ضوء النهار فهى الآن تنشر ضوءا دافئا ويعطى انطباعا بأنه كما لو أن هالة من الضباب تحيطها، تمرعربات الحنطور الكبيرة ذات الخيول البيضاء ولافتات الإعلانات الحمراء من أمام النافذة.

أحمر.. أزرق.. أبيض تختلط تلك الألوان وذلك في حركة مستمرة.

لكن أكشاك الجرائد لم تقترب مثل القطار الداكن لشارع بوليفارد للشمعدان للضوء.أمسك بالجريدة في يدى ولم يكن يؤثر بى شيئا أن أقرأها فلم أكن آتى إلى هنا من قبل كى أواصل خيالات المساء على أطراف هذا المجرى المتدفق. نعم على أطراف هذا النهر المتدفق. لكن هناك في أعلى حيث تتكور السماء الصافية الشفافة مثل قوس فوق صف المنازل السوداء، فالشفق لم يتلاشى كليةً والسماء هناك باهتة اللون وباردة بينما تغرق في نهاية الشارع وكلما اقتربت من الأرض تصبح أكثر صفاءا، وأراها في عينى لم تغلق بعد بل كانت تأخذ شكل قوس يتجه للشمال ويبتعد أكثر وأكثر وكلما ذهب للشمال فوق الجبل، والبحر كلما أصبحت أكثر برودة والنجوم تلمع من خلفها، أما في موطنى فنلنده فتسود البرودة الشديدة والثلج جاف يتكسر تحت الأقدام والأشجار في شارع اسبلانادا في مدينة(هيلسينكى) تقف هنا مكتسية برداء من جليد تتدلى فوقها أسلاك التليفونات المغطاة حديثا وموجات الدخان البيضاء المتصاعدة من المداخن والأجراس تدق، ولكن مَن يا تَرى هذه السيدة التى تجلس هناك ؟ فهى سمينة. ظلت هذه السيدة لحظة أمام نافذة المقهى-سيارتها حمراء والجليد الأبيض

معلق على رموشها. لو أننى استطعت لمس هذه البشرة الرقيقة الباردة! لو يسمح لى بمرة واحدة! فأنا واثق بنفسى ولا أنعى هما، سأنتظر حتى يأتى وقت أجد فيه سعادتى، هل هذا هو تأثير شراب(الإفسنتين) ذى الرائحة الطيبة؟ تبدو حالتى مغايرة تماما وأظن أن هذه الحياة وهذه المدينة قد تبدلت. كانت نفسى وروحى المعنوية ترتفع بفعل السعادة وأصبح قلبى لينا، ولم أكن أفهم هذا حقا حتى الآن. شعرت أن هذه المدينة وهى ألالاف من أقدام الحيوانات المفترسة وهى جمال رقيق ذو بشرة دافئة رقيقة تعانقك وتداعبك بيدها اللينة مثل الحرير ويبدو لى الأمر كما لو أنه قد تدفق حب الحياة في كل مكان وكأن مشاعر ملتهبة وسعادة صعدت من قبو دافيء تحت الأرض.

إن التطور الذى حدث على مدى قرون وصل صداه إلى بقاع الأرض وسكن وتغلغل بقوة فيها واذدهرت به الدنيا كأمطار سقطتت على أرض قاحلة ووصل إلى ذروته، على قمة لشعاع هذه النافورات وهذا في كل لحظة وسلسلة رغوات، هذه هى الباريسية التى تقابلك صدفة في كل مكان هذا الفراء الطرى، هذا السنجاب المرن. ياله من عسل في حركتها وفي صوتها وهذه الليونة في سيرها!َ كيف يمكن أن تحب هذه السيدة وتجاملها وأن تعترف لها أنها ربحت لمرة واحدة. أفهم الأن لماذا يفتن الفرنسيون بمدينتهم العاصمة وأفهم أنه الفرنسى يشتاق إليها بمجرد غياب الشوارع الممتلئة بالأشجار والألوا ن والنوافذ المضيئة للمقاهى والحافلات

بمجرد عدم شعوره بهذا الأسفلت تحت قدميه الذى يروح ويجىء فوقه بكل سلاسة معتقدا أن هذه المدينة هى محور العالم. ألا أستطيع الاندماج مع كل هذا وأن أتعوَّد وأظل ما تبقى من حياتى هنا؟ قد تكون فنلندا بلدا جميلاً وربما تبعث سمائِها أحاسيساً جميلة ونقية ولكنها متعبةً ضعيفةً، وقد تكون ليالى الصيف صافية ولكن الرياح الباردة العاتية تهب فوق أرض ممتلئة بالوحل. كم هى عميقة تلك الظلال.

فالحياة هنا في باريس متوهجة ومفعمة بالحيوية والصخب، فالمرء يستطيع هنا أن يحيا حياة الشباب، وحتى كبار السن يجدون متعتهم هنا أيضا كما لو أنها لا توجد في مكان أخر. عادت(أنّا) تتراءى لى من جديد لكننى يجب أن أفكر في نصائح أخيها لى وأتدبرها سائلا نفسى : ما هو الأثر الذى من المفترض أن تتركه(أنّا) في نفسى حين ألمحها هنا في الشارع بين كل الماريين، أليس من الممكن أن تكون هى لا تشغل بالها بهذا مثلى طوال هذا الوقت ؟ هل لى أن أعتبرها امرأة عادية كباقى النساء ؟ هل أخوها لديه الحق فيما أخبرنى به ؟ أنا لم أعد أفكر في هذا.

أمر من أمام دار الأوبرا واتجه لشارع(افينا دا اوبرا) وأسير أمام المسرح الفرنسى من هناك وعبر متحف اللوفر إلى ساحة القصر الملكى القديم الذى يرتفع في منتصف هذه الساحة أحد الأعمدة الحديدية ذى رافدتين تتدلى منهما مصباحين ينشران ضيائهما الرائع المبهر، أسير على جسر نهر السين وأظل للحظات هناك

كى أتأمل القوارب البخارية الصغيرة التى تنعكس مصابيحها الحمراء في المياه كثعبان البحر الذى تم صيده. لقد طردت كل همومى وكانت مشاعرى هادئة تماما في ذلك اليوم الذى لا أفكر فيه في أى شيء غير الاستمتاع باللحظة وغالبا ما يحدث أننى عندما أعود إلى البيت مساء يوم كهذا، أجد تلغرافاً أو خطاباً على المنضدة وينتظرنى شعور داخلى شرير يهز قلبى فجأة وعندما أفتح الغلاف بيد مرتعشة وأقرأ منه شيئا فكرت فيه منذ وقت طويل والذى خشيت وصول هذا الخطاب والذى نسيته بالمرة لساعات مع أن هذه الساعات كانت تمثل نقطة تحول هامة في حياتى، وبعد أن أكلت في أحد المطاعم على الضفة الغربية لنهر السين رجعت من نفس الطريق الذى سرته فيه إلى مقهى(دا لا ريجينا) واتصفح أثناء عبورى بعض الجرائد الفنلندية، أجد المقهى الشهير خاليا من الناس تقريبا وكل نادل فيه منتظر دون عمل وكرات البلياردو تصمت أسفل مكانها ويبدو أن مرتادى المقهى الدائمين في بيوتهم مع أسرهم.

وها أنا هنا وحدي ليس لدى صديق أو شخص معرفة أبحث لنفسى عن أنس أئتنس به هذه الليلة، يجلس بعض السادة كبار السن هنا يقرأون الجرائد ويدخنون البايب، لعلهم غرباء وربما ليس لديهم مأوى غير المقهى مثلى، وفي مسافة ليست ببعيدة على أطراف المنضدة الأخرى جلس شاب عندما جئت إلى المقهى، شرب قهوته و يبدو أنه كان منتظر لشخصً آخر و علىه علامات التوتر

ينظر من حين لآخر في ساعته، أظن أن موعده قد فات، ثم أخذ يهدأ من نفسه ويدخن السيجارة وبعد لحظات رأيت عبر النافذة سيدة تمر من أمامى وهى تستقل الحافلة ثم عبرت الشارع بسرعة وجاءت إلى هنا فلمحها هذا الشاب وهو سعيد ثم أعطى إشارة للنادل كى يدفع الحساب، تسللت هذه السيدة عبر الباب وذهبت إليه ثم تحدثا سويا للحظة وشرحت له شيئا وكنت أتفهم ةهذه الحالة، ثم ذهبا سويا ذراعاً في ذراعاً.

تخيل أنك تمتلك شخصا ما تنتظره وتخيل أنها هى تلك التى أنتظرها ودون أن تنظر حولها تسرع الخطى بامتداد الشارع المتلىء بالأشجار وتنعطف هنا عند دار الأوبرا. فهى الأن على الجانب الآخر من الميدان المفتوح ميدان المسرح الفرنسى. انتظرت حتى عبرت بعض العربات كى تصل إلى الشارع ولم أستطيع رؤيتها فهى هناك خلف النافورة.

وقالت :

«مساء الخير هل تجلس هنا وحدك؟»

وقد وضع رجل ريفي يده على كتفي كنت قد قابلته هنا في باريس بضعة مرات.

«نعم بالتأكيد، والآن كيف حالك؟»

فلم يكن من النوع الذى يستهوينى مجتمعه ولم يخبرنى بشىء محدد، فهو لا يعرف غير الجرائد. فمن الطبيعى أن يكون هذا محزنا ثم أومئنا برؤوسنا وتنهدنا. فكلامه ذكرنى بالوطن.

إن هيلمى توفيو راوتيو خطيبتى وبالتأكيد أسمع صوتا قائلا لى: أنت تعرف عائلة هيلمنش فمن هو توفيوراوتيو؟ هل هو من راوتيو ؟

أنا لا أعرفه. فالفتاة بقيت معلقة بسرعة فأنا لا أعرفها بالتأكيد من الخارج. فقد رأيتها في المسرح فلفتت نظرى في شارع اسبلانادا حينما ذهبت هناك مع أخيها جارشون وقالت :

«هل تريد أن تذهب؟»

«لدى ميعاد مع أحد الأصحاب».

أرى سلسلة طويلة من مصابيح الغاز في الشارع وكيف تتوحد في مسافة بعيدة مع سلسلة أخرى. أسمع صوت دوران العجلات وصوت قرع حدوات الخيل، وأمام فاترينة أحد المحال تدلت ستارة ثقيلة ولكن واجهة المبنى كلها لمعت بحروف كبيرة لكلمات« فندق لوفر»، وهناك مبناً ضخم وعلى اليسار صورة داكنة سوداء مظلمة وساعة مضيئة فوق قمة العامود، هذه الساعة التى كادت عقاربها يتلامسان.

وتجلس هى الآن في حجرة(أنّا)، فوق أريكتها الصغيرة ولم يكن أى مصباح يضيء تلك الحجرة وربما يتسلل ضوء خافت عبر الباب، فعندما تخرج سوف يتصفف شعرها وتحمر وجنتيها.

أذهب وأذهب دون أن أفكر وفي وسط الميدان المفتوح وعلى أطراف حمام السباحة تظهر مجموعة رؤوس حيوان بحرى مع رؤوس بشر وأقدامهم وذيل سمك فهم يبرقون من الرطوبة ويبدون لى في الضوء

باعثا على السخرية فأى طريق سلكته في هذا العالم ؟ هذا هو جسر نهر السين وعلى الجهة الأخرى ألمح واجهة مجلس النواب فهذا هو ميدان(دا لو كونكورد) وأنا أسكن حى(مونتمارتيه).

جذبتنى عجلة من عجلات العربة من أكمامى فأنحنيت وأخذ سائق العربة يهمهم ببعض الكلمات التى تعبر عن غيظه، وقلت « لو أنك لا تريد فأنا أيضا لا أريد ! «والمفارقة التى شعرت بها في تلك الليلة أو بالأحرى عندما كنت أفترق وأودع(أنّا) داهمنى فجأة وأخذ يتصاعد كلما اقتربت من مونتمارتيه. أسرعت الخطى عبر ميدان السوق والظلال الداكنة تسقط على الطريق بامتداد المنازل، أحمد الله أن ظهر شيء واضاح في هذا الأمر إنه الحظ الذى قطع أخر الخيوط.

فلم تقم للجذور قائمة فلنزرع الجذور في أرض أخرى فلتغرسه هناك جيدا بحيث يدوى في المحيط كله تقط القشرة القديمة.

كم هى سخيفة اعلانات الخطبة في الجرائد ولم يتبقى إلا وجود اعلان خطبة أخيها بحروف كبيرة، ربما وجدت ! ياله من أخ وأخت إلى جانب متقاربين وبالطبع سيكون الزفاف في نفس اليوم.

فقد رأوا أنه لي شيئ مهم أن يخبرونى بهذا ولما لا؟ فربما جال بخاطرهما أننى أعرف هذا من الجرائد. فالأم والأخ مسحورين بصهرهم الجديد.

فمصابيحها الكهربية الحمراء الصغيرة بأجنحتها المتحركة تتحرك في هدوء متناغم تجذب المتجولين من بعيد وفي النوافذ تشتعل

مشاعل حمراء وكذلك الباب بين أقدام الطاحونة فالناس يأتون من كل حدب وصوب وبعض المشاة وكل الحشود يسرعون قادمين من الشارع الممتلىء بالأشجار، ومن فتحات الشارع المتاخمة له إلى الطاحونة وتتوقف أمامه سيارة تلوالأخرى، ثم تواصل السير كى تقف في مكان آخر مثل زوبعة صاخبة في طاحونة تجذب الناس ثم تبتلعهم داخل حلقها، ثم يذهبون مستمتعين ضاحكين سيدات ورجال كما لو كانوا في صورة على جدران الكنيسة-فهم جمع فرح من الناس يرقصون على الطريق المتسع باتجاه الجحيم- وأنا بالطبع سأحذو حذوهم فأنا أريد أن أحيا ليلة عيد الميلاد. أظن أننى مجنون لأنى لم أذهب إلى هناك من قبل:

«يا لك من معتوه لأنك مازالت تحيا بصرامة في موطن السعادة».

مثل ورع بائس أصعد درجات السلم الضيقة التى تؤدى إلى مسكنى في الطابق السادس أسفل السماء، ولكن لماذا؟ ولأى سبب؟!

وودت الوقوف أمام الباب أراقب العابرين من أمامه، ثم تظهر رأس امرأة من إحدى السيارات ثم ركب ثم لمس الرصيف حذاء صغير مصنوع من الحرير، هذه الصغيرة التى ترتدى الحرير المنكمش وفوق رابطة شعرها ترتدى قبعة لطيفة صغيرة مخملية.

وسمعت صوتا قادما من السلالسل البشرية المتواصلة يقول :

«ياله من أنيق!»

فترددت في الدخول وقلت عما أبحث هنا؟ ولكن رجل الأمن طلب

منى إما أن أدخل أو أبتعد. وعندما فتح الباب سمعت نشاذاً يخرج عن إيقاع الرقص ثم جذبونى إلىهم رغماً عنى .

ثم وقفت على أعلى درجات السلم التى تنتهى إلى صالة الرقص وخطر ببالى أقوال عفا علىها الزمن«ألف ليلة وليلة» تحثنى عن الإحتفالات الغيبية وعن القصور الذهبية والبلورية التى توجد وسط الجبال والتى لا يعرف أحدا لها طريق وتفتح أبوابها فقط بكلمة «افتح يا سمسم».

ومن فوقى السقف بلوحاته الوقحة والأعلام واللافتات معلقة ومتجاورة مرفرفة بهدوء، أرى الكهوف والغابات الخضراء ولم ألحظ في البداية أن الحوائط منقسمة إلى نصفين، نصف تغطيه اللوحات والنصف الأخر يتكون من المرايا فلم أعرف جيدا ماهو حقيقى وما هو مجرد انعكاس حيث رأيت سلسلة طويلة من الأعمدة وعدد لانهائى من المصابيح، فالحشد المتنوع الذى كان يتداخل في أسفل أوحى لى بأنه يملأ حقلا بعيدا مترامى الأطراف، فهم يتحركون بانسجام مع نغمات الموسيقى ثم سرعان ما تنسجم خطواتهم مع رقصات الفالس أيضا.

كانت القبعات الاسطوانية المصقولة تلمع وتبرق، ثم تقتحم عينَّى صورة من الياقات البيضاء وأربطة العنق وأكتاف ورقاب النساء المكشوفة الجذابة فتظل لحظة ناظرا إلى الوجه فتمموج بك رأسك ثم تضيع بين هذا الجمع، كانت الموسيقى كئيبة وإذ بحالة من الهزيمة تستبد بى وكأنما غشيتنى نوبة إغماء فشعرت بالتعب وأن ركبى تهتز.

أوشكت حينها على البكاء لكن بعض صيحات البهجة وضحكات صاخبة اقتحمت أذنى، كان كل اثنان يتحركان في دائرة متقاربين الرجال والنساء كأنما هم روح واحدة، و القبعات تسقط على رقابهم وكعوب أحذيتهم تطير في الهواء والتنانير البيضاء تتطاير أسفل القمصان الداكنة، وفجأة أسرع حذاء صغير من الحرير للارتفاع في خط متوازى مع رؤوس الحاضرين وظهر جورب أحمر اللون حتى الركبتين. كان الهواء ساخنا وثائرا في الوقت الذى تنظرى لى سيدة حادة القسمات نظرة محملة ببخار وعطر وعرق كأنما يخرج دخان العشق الإنسانى المحترق من فوهة بركان.

ذهبت ودخلت بين جمع من الناس أرى عيوناً تلمع وأحس بلمسات الحرير والأذرع اللينة والأكتاف المستديرة أثناء عبورى بينهن وكنت أتجول من جانب القاعة إلى الجانب الأخر ثم أقف بجوار من يرقصون وأتأمل حركات الأيدى والأقدام المرنة وكذلك الخصر والرقبة.

ولأول مرة في حياتى غلبتنى رغبة في الإنغماس في الحياة بشكل كامل والإستمتاع بها في كل أشكالها حينما يتسنى لى فعل هذا. إننى أريد أن أتحرر تماما وانطلق في هذا العالم الساحر الجامح وأرغب في أن أكون معميا ومخمورا منتشيا فلم أعد أخشى اليقظة مثلما كنت في الماضى، وأريد أن يأخذنى هذا العالم إلىه وربما تأخذنى مدينة باريس حتى الموت، ولو أنها استطاعت مداعبتى وحملى على راحتيها، فأنا لدى الوسيلة وأستطيع أن أدفع زفافي وومتعة شهر العسل. ويااليت التيار يجرفنى ويا ليت مياه السيل الجارف تهزنى، ثم أخلع قبعتى وأنادى الأصحاب الذين ليس لهم وجود الوداع وأفارق الوطن بضفافه المحببة والأشجار التى تحيط مائه وأشجار البتولا وشجر الدردار والغابات الصغيرة المظلمة. لم أعد كذلك أرغب في سماع هدير السيل الجارف ولا أرغب في معرفة شيء عن الموت الذى يهدننى.

لم تعد لدى الرغبة في الثقة بالحياة برمتها كما أن لدى حق فيها، أريد الإستمتاع قبل أن يتجمد دمى وقبل أن ينتهى أجلى. أرغب في العناق والتقبيل عوضا عن سنوات العذاب فهذه الرغبة بدأت تجتاحنى تدريجيا لأننى متعطشا لسعيرها. أصبحت نظراتى جسورة وواثقة فصرت أنظر وأنتقى من كل هذا الجمع إمرأة وملامح وجه قد تعجبنى.

عاد الأمان من جديد من فترة صبايا وميولى التى لم أعبر عنها منذ زمن طويل لتستفيق على حالتى الجديدة التى أنا علىها. لم

يكن لدى النية بالتأكيد أن أستمتع بالأولى الأفضل فأبيت، ثم ترددت قليلا عند الأخرى وأعجب أحيانا بثالثة، ثم أهجرها أيضا. إحداهن تضع مساحيق تجميل كثيرة على وجهها والأخرى شاحبة والثالثة لديها شيم حول فمها وعيون الرابعة بلا بريق. فأنا أريد أن أحظى بأفضل عطر يمكن أن يوجد هنا.

وهناك سيدة يتسم مظهرها بالجدية اصطدمت بى مرة أخرى أثناء مرورى فهيئتها تدل على الترف فهى منمقة وقسماتها صافية وراقية أقرب إلى النبلاء وتبدو أيضا خيرة وودودة. فهى لم تضع أى من مساحيق التجميل وشفتاها بها نضارة طبيعية وملابسها بسيطة غير متكلفة ذات ألوان داكنة تضع فوق فرائها زهرة بنفسج زرقاء. لم تشارك هذه السيدة في الرقص وبدت لا تمتلك أصحابا، مرت من أمامى في إحدى المرات ولمستنى بكوعها دون قصد ثم اختفت وسط هذا الجمع وأنا أتأمل الراقصون، ثم انقطعت الموسيقى وانفكت حلقة الرقص ووقفت هذه السيدة خلفي مرة أخرى وعندما مررت أمامها نظرت إلى وجهى ولا حظت حينها كم كانت عيناها كبيرتان وهماأجمل ما رأيت على الإطلاق وذهبت مجددا ولكنى تبعتها. ربما لم تكن هه السيدة من الزائرات الدائمات لهذا الملهى وربما قادتها الصدفة إلى المجيء إلى هنا. كنت أرسم صورة في خيالى لعلاقتى بتلك المرأة الباريسية تماما كما قرأتها في الروايات. لم تغب عن عينى قط، فعندما كانت تتوقف كنت أظل واقفا خلفها وفجأة وبلا أى مقدمات استدارت هذه السيدة وسألتنى :

«أنت لا ترقص؟»

فقلت :

«للأسف لا».

فقالت :

«وأنا أيضا لا أرقص. هل دعوتنى على مشروب منعش؟»

وأخذت ذراعى وجلسنا على منضدة صغيرة بجوار الحائط وسألتها:

«ماذا تودى أن تشربى ؟»

حيث كانت تشعر بالعطش وتريد فقط أن تأخذ كأساً من الجعة، وحينما ذهب النادل لإحضار الطلبات كانت هناك فترة توقف. ثم أخرجت علبة السجائر من جيبى عرضتها علىها فأخذت واحدة ولم تطلب أن تشعله ووضعتها في صدرها وقالت «أفضل أن أدخن في البيت، أنت ستزورونى اليوم في بيتى؟» وعندما تعهدت لها بهذا صدمتنى بركبتها وشربت في صحتى «كم كنت أعانى من العطش».

ثم أفرغت نصف الكأس وقالت «فهى جيدة بالتأكيد، أننى أحبها «وبعد أن انتهت من شرابها وذهبنا وعزفت الموسيقى لحن الفالس الكئيب من جديد، وعندما صعدنا السلم العريض رأيت كيف يتحرك هذا الجمع الحاشد في أسفل وعلى الجهة الأخرى من الصالة ترتفع منصة العازفين وكنت أرى حركة عازف الكمان وكذلك عصى إيقاع قائد الأوركسترا، ولكن لماذا داهمنى فجأة الإحساس بالرغبة في البكاء؟ ولماذا بدا كل شيء محزنا وممزقا للقلب؟ ولماذا لا

أرغب في البعد عن هنا ؟ ، لكنها تشبثت بذراعى ولم تتركنى ولا حتى عندما أخذت مظلة المطر من يدى.

بدأ المطر في الخارج يهطل وقامت هى بفتح مظلتها وأعطتها لى كى أمسك، بها وأمسكت بيدها اليمنى فستانها، ووضعت يدها اليسرى في ذراعى، كان المطر المتطاير يتساقط ولكنه لم يستطع تكوين أى تجمعات للماء على الأرض ولكن غطت الأرض طبقة متسخة من الطين في كل مكان تبدو في كل خطوة سببا في الانزلاق فوق الأرض، كانت مصابيح الغاز وكشافات السيارات تنعكس صورتها في الشارع المبتل كما لو أنها في مجرى مائى راكد، وحدوات الخيل تقرع كما لو كانت قرع فوق قضبان مغطاة بالماء.

كنا نتجول نحتمى بالمظلة وكانت هى تتولى قيادتى ثم تسحبنى وسألتها لوكانت تسكن بعيدا عن هنا فأكدت :

«قريبا جدا، قريبا جدا»

وعند ناصية الشارع طلبت منى أن أقبلها وقالت :

«قبلنى يا صديقى» فوقفت وأنا غير متزنا قليلا، لكننى وجدت وجنتيها حين لمستهما رطبتين وبشرتها ناعمة فقبلتها مرة أخرى دون أن تطلب منى، وفجأة حين أضاءت مصابيح الغاز في إضاءة تحت طرف قبعتها بدت تشبه(أنّا) بشكل عابر، نفس الوجنتين ونفس الوجه ونفس خصلة الشعر المجعدة على أذنيها، كانت تتحدث طوال الوقت معى وأثناء سيرى معها كانت تغنى لحنا بصوت هادىء ولكنى في هذه اللحظة لم أعد أسير معها، بل

كنت أسير مع(أنّا). أقف مع أنا أمام الباب وهل هى يدها المغطاة بالقفاز، هذه اليد التى كانت تضغط على باب الجرس، فنحن لدينا شقة صغيرة في الطابق السادس وصالة صغيرة وحجرتين ومطبخ وستائر ثقيلةأمام الباب والنافذة، ولدينا أيضا مظلة ومكتب بكرسيه إلى جانبه. وبينما أنتظر فتح الباب أحيا للحظات قصيرة وكأننى في ضوء مفاجيء للبرق أحيا لتحقيق أملى الجميل وكل خيالاتى وأحلامى قبل أن تنتهى الحياة، وحينما فتح الباب استفقت من أحلامى. تسللت إلى الممر وأحضرت قبس من ضوء من عند حارس البيت وكانت تسرع فوق السلم وأنا أسقط الميلء من فوق المظلة.

كانت حجرتها مجهزة بأثاث جيد فهناك مقعد مريح كبير وكذلك كرسى ذو مسند وستائر سميكة أمام النوافذ وأمام المظلة وكانت هناك إضاءة شديدة.

وضعت معطفي وجلست متمددا فوق أحد الكراسى متكئا على ظهره وكانت هذه السيدة منشغلة كالنادلة في بيتها الصغير وقد أوقدت المدفأة وهى تجلس أمامها على ركبتيها وأخذت ترتب المنضدة وفي كل مرة تمر فيها أمامى كانت تداعبنى، بدلت الفستان الدانتيل الذى كانت ترتديه بلباس منزلى ووقفت أمام المرآة وأطلقت شعرها ثم ربطته بحلية حمراء، والآن أعتقد أنى سأجد شيئا آخر في هيئتها وفي حركة رأسها.

ناديتها فأتت ووضعت يدها على رقبتى وجلست أمامى على

ركبتيها وقبلت جبينى ووضعت رأسى بين يديها كما لو كانت تعرف شيئاًعما أحاوأن أنسى وفيما أفكر، كنت أتعجب كيف أدركت أنهايجب أن تكون كما أردت، وسألتنى :

لكن لماذا أنت حزين ؟

فهى ليست حمقاء ولديها خبرة ما ومعرفة بالعالم والبشر وكيف وجب علىها تعلُّم كيف تحتقر في حين أنها تعيش بهذه الطريقة قريبا مع أحدهم وقريبا أيضا مع آخر، فمن المؤكد أنها أحبت ذات مرة وكانت مجنونة وغير سعيدة في هذا الحب وربما تعرضت للخيانة من قبل مع من تحب وربما داست بأقدامها أحدا، إذن فما الذى لم تختبره هذه المرأة حتى الآن؟

وقالت: «ولماذا تنظر لى بطريقة معينة هكذا؟»

فأجبتها : لأنك جميلة جدا .

لم يظهر علىها أثر للهمجية ولا الندالة، حيث كانت لطيفة وودودة وتريد فقط أن تحتفظ بى وأكدت لى أنها أحبتنى من النظرة الأولى، ولم يكن هناك مجالا للحديث عن تركى لها، فكان يتوجب على أن أبقى طويلا لديها وكان لا بد أن آتى إلى هنا كل يوم فهى تتواجد كل يوم في البيت وأستطيع أن أتى حين أريد. لن أكون مملا ودون الشعور بأن هذا ضد رغبتى تركتها تداعبنى وتقبلنى.

تأملت كيف كانت تنام هناك ومن جديد تشبه فهى(أنّا) ربما بدت كذلك لأننى أنا الذى بحثت عن ذلك التشابه ولأننى أريد أن أنخدع عن عمد ولا أريد الهدوء، وبينما أفعل هذا أشعر باحساس

مريح يرضى غرورى وبلا رحمة أبحث عنها في شخوص الآخرين، صحيح أن هذا يؤلم لكننى أتلذذ بهذا الألم. هكذا تخيلتها إلى جوارى، وهى تداعب شعرها بأصابعها، وجهها بكل تفاصيله وجبهتها وحواجبها وأنفها وفمها ورقبتها، وكذلك الضوء الذى يتلألأ في عينيها الداكنتين المترقرقتين.

ثم سألتنى لماذا تنظر لى بطريقة غريبة ؟

فأجبتها :

«إنك تشبهين امرأة كنت أحبها منذ سنين.»

فقالت «هل كانت جميلة ؟»

«لم تكن جميلة مثلك.»

«هل أحببتها ؟»

«نوعا ما ولكن هذا أمر مضى.»

«هل أحبتك ؟»

ودون تفكير نسجت قصة من وحى خيالى وتوهمت أن المرأة التى أحببت لم تكن مخلصة لأننى وجدتها في أحضان رجل آخر.

«هل تبارزتم ؟»

«نعم تبارزنا وقد جرحته في يده.»

«إذن فقد ثأرت لنفسك؟»

«لو أن المرء ينتقم قالت هذا وهى تمر أمامى ثم سألتنى لو أننى مازلت أحب الأخرى»

«لا فأنا الأن أحبك أنت.»

obeikandl.com

«نعم ولكن لفترة قصيرة.»

«أعتقد أن حبى لكى كان ليستمرطويلا لو كنتى تعيشين في فنلندة.»

طلبت منى أن أذهب بها إلى فنلندا فالحياة هنا أصبحت بالنسبة لها مملة فلقد كرهت المقاهى والرقص وهى تشتاق الأن للبعد عن مدينة باريس.

«ولكن لماذا تعيش هنا ؟»

«لأننى يجب أن أعيش هنا.»

وتركنا العنان لخيالنا فذهبنا سويا إلى وطنى رغم أن كلانا يعرف أن هذا مجرد خيال يصعب تحقيقه ولكننا تصرفنا كما لو أننا صدقنا هذا الخيال، وكنا نبتهج عندما نتوهم هذا. فليس هنا من شيء يربطها فهى ليس لديها صديق، سنسافر عبر البحر وفي أثناء النهار نصعد فوق ظهر السفينة وننزل مرة أخرى نجلس في ضياء الشمس وفي الليل ننام في نفس الكابينة التى هى أفضل مكان في السفينة، فنحن حديثى الزواج.

«فلنعب دور حديثى الزواج».

«وعندما نصل إلى مدينة هلسنكى ستكونين زوجتى ونتنزه فوق الشوارع الممتلئة يالأشجار...

ألديك في وطنك شوارع ممتلئة بالأشجار ؟

«نعم لدينا.»

«وسوف يلتفت الجميع إلىكى ويتأملون فيكى ويسألون : ترى من هى هذه السيدة الأنيقة، الجميلة والرقيقة ؟»

«هل تعتقد أنى سألفت الأنتباه ؟»

«بالتأكيد»

«فلتأخذنى إلى هناك يا صديقى الغالى فلنسافر سويا غدا.»

«وفي الصيف نسافر إلى الريف حيث نتملك فيلا وسنصطاد ونجدف ونسير بشراعنا»

فهى كانت تجدف في نهر السين وكانت تملك بدلةً للتجديف أرادت أخذها معها.

كنت آخذ(أنّا) معى في كل مكان هناك، وإلى حيث حجرتى، أصبحت عصبيا ورأسها تؤذى ذراعى وأنفاسها تجعلنى ألهث وودت أن تنقلب بجسدها وتتنفس ناحية الحائط. وبينما أفكر في طريقة أخبرها بها باقتراحى دون أن أجرحها بادرت هى بذلك، وعندما ألمحت أنها قد تكون شيئا مملا بالنسبة لى فكم تعذبت من الموقف برمته وبينما أفكر فيما تحدثت فيه يطغى على شعور مقزز وأبعد عنها من جديد، بدأت أنّا تتنفس كنائمة وحاولت أيضا النوم ولكن الأجواء الغريبة في الشارع وأصوات عجلات السيارات أقلقتنى، كنت أسمع أصوات وخطوات فوق السلم وحديث بين رجال ونساء في الغرف المجاورة وأصوات ضحك مغمور، لكن مع كل هذه الإزعاج كان ما يزعجنى أكثرهو الصوت المجاور لى وكم خشيت أن تستيقظ و تعانقنى فتصنعت النوم حينما وجدتها تتحرك. لقد غفوت أخيرا ولكن ليس هذا نوما عميقا ولم يبدو إطلاقا أننى أحلم بكابوس، لقد حلمت بأننى أتنصت عليها

تلك التى ترقد هناك. وأعتقد أنها ستصحو وتنتظر فقط أن أغفو وستنتظر اللحظة المناسبة وتتسلل إلى الكرسى الذى توجد عليه أموالى كلها ولكنها ليست هى صديقتى الجديدة التى استمع إلىها بل إنها أنّا أو بالأحرى هى خليط بينهما فهى تريد أن تسرق مالى. كنت أريد إجبار نفسى على الاستيقاظ ولكنى لم أستطع بل غلبنى النوم، وخشيت في هذا الوقت أن تستيقظ هى. فصحوت أواسى نفسى بتأوه غريب.

وقالت : ماذا بك ؟ دعنى أنام، دعنى أنام.

ولم أغامر بالنوم مرة أخرى ولم أكن أرغب إطلاقاً رؤية هذا الحلم مرة أخرى، ظللت لبضعة ساعات أرقد مستيقظا وأسمع دقات الساعة الموضوعة فوق المدفأة الرخامية ، إنها تعاسة الحياة، فكل هذه الكآبة بسبب وحدتى التى تقهرنى وتعذبنى، وأشعر كأنما ليست هذه تعاستى وحدى بل هى تعاسة العالم بأسره الذى أراد في هذه الساعات أن يبث شكواه في هذا الشتات والقسوة اللذين أعانى منهما. كم أرى كل هذه الأحاسيس قذرة وقبيحة وكاذبة وأعتقدت للحظة أننى سأجد مواساة ونسيانا لكل هذا.

ومازلت أرى أنّا أمامى الآن نائمة هذه الليلة في بيتها نوماً هادئاً يعكس براءتها في الحجرة المزدانة بزينة البنات التى يسقط عليها ضوء القمر الصافي الخافت. وعلى نافذتها تلمع صورالثلج وفي الخارج يكسو الثلج الأرض يغمره ضوء القمر، اطلاقا إنه قد فات الخلود.

ولكنها سرعان ما تبدأ في الأنين وهى نائمة، ستبكى وتصرخ وتتنهد كما لو أن رو حاً شريرةً مستها، ومن يدرى بما تحلم الآن ومما تعانى، ومن يدرى أيضا أكانت أحلامها أسوأ من أحلامى أم لا، أشعر تجاهها بشفقة كبيرة وأتخيل تعاستنا التى نتقاسمها نحن واتخيلنى أوقظها وآخذها بين ذراعىَّ بكل الحنان ونارالشعور بفقدان الأمل، ستحضننى أنّا وهى بين الصحو والنوم وتقول : أحبك، أحبك، إنى خائفة فلتقبلنى.

لكننى أحاول نسيان الماضى من جديد ولا أريد أن أفكر فيه بل يجب أن أتحرر منه.

كان ضوءالمصباح هادئا بينما أشرب كأساً من البيرة وأدخن سيجارة مستلقيا على ظهرى وأنا في تخيلات يقظة فجسدى وروحى في حالة توازن وانسجام كنتيجة لحالة الارتخاء وأتعجب من حبى لأنّا وكل الحالات الطفولية التى عايشتها طوال الفترة الماضية بسببها، وفجأة حدث لى كما لو كانت تلك الفتاة التى أعرفها منذ أن كانت تلميذة قابلتها صدفة وأنا في طريقى إلى المدرسة، فهى لم تكن بالنسبة لى إلا طائراًمعروفاً كنت أميزه عن الآخرين فقط لأنه كان يطير أثناء طريقى إلى المدرسة، وسألت نفسى ما كل هذا القهر والألم الذى عانيته بسببها ؟ هل كنت أتصرف بهذه الطفولة

obeikandl.com

وعدم النضج ؟ وكيف تصورت هكذا فجأة إمكانية وجود حب مثالى راقٍ وبيت وسعادة زوجية وكل هذه التمنيات التى لم أعد أفكر فيها منذ سنين ؟

من أين جاءت هذه العودة المفاجئة لهذا المرض القديم؟ فهذا العالم أصبح واقعيا وقاسيا فالمرء يجب أن يدرك أنه عالم جاف يشبه زهرة (القراص) التى تحرق اليد التى تمسك بها، بدأ الصباح ينجلى وهى تنام نوما هادئا هذه المرة، وأصبح ضوء المصابيح مصفراً وخافتاً وبدأ ضوء النهار يتسلل عبر الستائر، هذه الستائر التى بدت أمس مصنوعة من الحريرالثقيل والتى تمزقت الآن في مواضع كثيرة، فاستيقظت أنّا وسحبتها من جديد وكانت كسوة الأريكة قد بليت والسجادة ومفرش المنضدة بديا قديمين ومستهلكين، وببصمة الواقع التى لا ترحم يسقط ضوء الشمس علىها فهى ترقد بسلام ورأسها تنزلق من فوق المخدة وتحملت ضوء النهار بالقدر القليل مثل حجرتها . وخصلة شعرها الصناعية التى تتدلى على جبهتها سقطتت ووقفت مثل الشوكة.

جبهتها التى تملؤها التجاعيد وأسفل عينها هالة سوداء وقسمات مترهلة حول فمها، أما أنا نفسى لا أبدو أفضل حالا منها حينما أشاهدنى في المرآة فقسماتى مترهلة وعينى ضعيفة وشعرى أشعث ولحيتى مثل القش، وقميصى ذى الأساور قد سحق، وحافة السروال مازالت مبتلة من يوم أمس والقبعة الاسطوانية ملأتها الثقوب بمواضع كثيرة والياقة متسخة، وحينما سمعت أنى أتحرك في

الحجرة استيقظت فجأة وسألتنى: هل ستذهب ؟
بدت آنذاك مهتمة وغير هادئة لسبب ما وتتبعنى في حركتى بعينها وعندما ارتديت معطفي ومشطت قبعتى لم تتورع عن سؤالى :
«هل ستذهب دون أن تهدينى شيئا ؟»
وحينما سمعت العملة المعدنية الذهبية ترن فوق المدفأة نهضت ثم بحثت عن قبقابها وارتدت تنورتها ورافقتى في داخل البيت. وعند الباب أرادت تقبيلى ولكننى منعتها ولم تلق بالا بهذا فنحن أخذنا من بعضنا ما يكفينا. وبينما أنزل على السلم كنت أرى أمام الباب زوجان من الأحذية أحدهما كبير والأخر صغير وكانا متسخين وموضوعين للتنظيف. أما في خارج البيت قابلتنى نسمة الصبا ح في يوم عيد الميلادوكانت نسمة باردة مضيئة وأجراس الكنائس القريبة تدق. وكانت حارسة البيت التى قابلتها فوق السلم تتمنى لى عيد ميلاد سعيد. كنت أرى باريس كلها من نافذة حجرتى في ضوء الصبح وأسقف وقباب الكنائس تتلألأن. وبشكل أوتوماتيكى أخذت حمام وارتديت ملابس نظيفة وذهبت للنوم مرة أخرى. وبينما أرقد فوق سريرى وأحدق النظر في السقف انتابتنى تلك الحالة المعتادة من البرودة التى انتابتنى هناك في حجرة تلك السيدة. وأصابنى ضعف مريح حيث كنت أمدد أطرافي التى صارت لينة ورخوة والدم يتدفق في عروقى بهدوء فنظفنى وحررنى من كل رواسب الأرض وقلت: ها.. حينما كنت أفكر في أنّا «إذن كانت هى؟»

فجذورى لم تكن أعمق «وقلت هذا بصوت عال لأننى كنت أريد سماع رنينها ولم يعاندنى صوتى ثم قلت فلتهدأ ! هكذا الحياة فخذها على علتها. وفوق السرير المفروش بالأغطية النظيفة التى وضعت حديثا من أجل الاحتفال بالعيد كنت أرسم ببرود وهدوء وسخرية صورة واضحة لمستقبلى، هذه الصورة الباهتة بخطوط مستقيمة كما لو أنى رسمتها بالمسطرة تماما مثل الحالة التى تنتابنى في هذه اللحظة.

هذه الحجرة هى حجرة رجل أعزب كبيرالسن، تجد في وسطها مكتباً عليه أوراق وهو مرتباً جيداً ومكتبة بها بعض الكتب وكذلك أريكة مصنوعة من الجلد، وأخرى في أحد الأركان كى يسترخى هذا الرجل، وهناك سرير من الحديد

في يوم من أيام المدرسة وفي البيت يوجد قميص نوم مريح وقبقاب وهناك سيدة هى التى تقوم بإدارة المنزل وليالى أقضيها في المطعم حيث يتناقش المرء بحماس في المسائل اليومية، ثم تتجه لأن تسلك

openkandl.com

طريق المحافظة وبالتأكيد هذا هوالطريق الأكثر أمانا ثم تدق جرس باب بيتك وتقرأ كتاباً قبل النوم وعلى الحائط فوق السرير يعلق إكليل الغار الجاف الذى يذكرنى برسالة الدكتوراه ولكن بدون صورة في المنتصف، وفي الصيف أسكن جزيرة منعزلة كى أصطاد السمك.

نعم هذا هو كل شيء وأضيف أنه لا يوجد تصور ولا أمل وحيد مبنى على تلك الأحداث، فسماء حياتى ظلت صافية وباردة و أصبحت أشعر بأننى تجمدت و ضعفت وأشعر بخواء تام يحيط بى وأصوات الموتى موحية بالوحدة الخاوية ترن في أذنى وأشعر بأننى متسلح بقوة تجعلنى أستقبل ما تعطينى الحياة إياه، ثم توجهت للحائط كى أنام، وأشعر كما لو أن عطرالصباح قد امتزج بفرش سريرى، وعطر من شعرها وبشرتها وغرفتها فأرادت أن تجتذبنى وتقبلنى تعانقنى.

أتركها ولا أنساها ولا أنحيها جانبا مثل كل الأمال الخائنة ؟ ولماذا لم تطلب في متعة و أنانية وحدتى كى أنفصل عنها ؟ ولماذا لا أتجمد في عدم مبالاتى الذاتية ؟

ولكننى أسأل بلا جدوى وأشعر أننى لا أستطيع هذا فربما تختفي من أمام عينى ربما لليلة، فساعات الصباح البائسة الجافة والمستحيلة ظلت كما هى وستعود نفس المشاعر ونفس الإستغناء المؤلم ونفس الملل المستهلك الذى عفي عليه الزمن. إننى ربما أحيا حيثما أريد وربما أبحث عن المواساة أينما أريد وسأظل أمد

يدى لها دائما بالرغم من أن يدى لن تجدها أبدا وربما أحاول دفن صورتها وأخبىء ملامحها لكنها ستظهر دائما بوجهها الجميل وخصلة شعرها على أذنيها فوق صفحة المياه الصافية.

obeikandl.com